مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

ميتافيزيقا الحروف عند الصوفية

(نماذج ممثلة)

د.نعمة محمد محمود عبد القادر

مدرس الفلسفة الإسلامية

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

مقدمة

قد تبدو دراسة الحروف للوهلة الأولى قاصرة على مباحث اللغة والنحو والصرف وما يرتبط بها من علوم أخرى ، ولكن الحقيقة أن ميدان البحث في الحروف في الثقافة الإسلامية من أكثر الميادين اتساعاً و ثراءً و تنوعاً.

وقد ارتبطت بدراسة الحروف دراسة الأعداد حيث اعتبرت من جنس ماهيتها و أصبحت مثار اهتمام كثير من الباحثين قديماً و حديثاً علي اختلاف لغتهم ، منذ أن دخلت لدي اليونان ضمن مباحثهم الفلسفية منذ القرن السادس قبل الميلاد عن طريق فيثاغورث الفيلسوف الرياضي والذي قدس أتباعه العددين أربعة وعشرة .

و دراسة الحروف تتميز بالخصوصية ؛ فهي تختص بحروف اللغة العربية ، ورغم ذلك فقد تناولها بعض صوفية الفرس وأدمجوها في اللغة الفارسية رغم اختلاف عدد الحروف في الأبجديتين العربية والفارسية.

و يمكن القول إن الحروف المقطعة في أوائل السور، و أسماء الله الحسني ، و اسم الله الأعظم كانت المادة الأصيلة للباحثين علي اختلافهم سواءً أكانوا متكلمين أو فلاسفة أو صوفية و ظلت مصدر إلهام كثير من الباحثين إلي اليوم ؛ و لعل هذا هو سر تنوع و ثراء المؤلفات في هذا الميدان حيث بحثت ضمن مباحث عديدة أبستمولوجية وأنطولوجية وميتافيزيقية و فيزيقية.

وفيما بعد أصبح هذا العلم جزءاً لا يتجزأ من مذاهب الصوفية ونسقهم ، وأكثر ميدان عني به الصوفية هو البحث الأبستمولوجي والميتافيزيقي علي الأغلب . إذ مر هذا العلم من خلالهم بأطوار عديدة بدأت بالبحث المجرد الخالص والتأملي الصرف إلي أن وصل إلي طور العمل ووصوله إلي هذه المرحلة الأخيرة يثير تساؤلات عديدة حول مدي أصالة انتماء هذه المرحلة إلي التصوف .

وسبب اختياري لهذا الموضوع للبحث هو ما لاحظته من وفرة إنتاج المسلمين فيه ، وفي المقابل قلة المؤلفات الحديثة فيه ، رغم أنه لايزال مثار اهتمام كثير من الباحثين . وربما تفسير ذلك يرجع إلى أن كثيراً من هذه المؤلفات لا يزال مخطوطاً ، مما يجعل مهمة الباحث شاقة . وربما يفسر هذا القصور بالموقف المسبق من هذا العلم ، وتحفظ البعض تجاهه لارتباطه بعلوم الفلك والتنجيم . لهذه الأسباب رأيت أن أساهم بفكرة متواضعة علها تضيف جديداً إلى هذه الدراسات .

وسوف أركز في هذا البحث على تناولات بعض الصوفية من أمثال سهل التستري وابن مسرة وابن عربي ، حيث وجدت لديهم آراء متنوعة بصدد الحروف . ولزم الأمر

أن أشير في إيجاز إلى تناولات الفلاسفة من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا ، والـذين أضافوا الجديد لدراسة الحروف بتنوع وجهاتهم .

ويثير هذا البحث عدة إشكاليات منها ماذا في الحروف من أسرار جعلت الصـوفية يخوضون فيها ويتركون لنا تراثاً كبيراً عنها ، ويتخبطون في مـنهج دراسـتها ، فتـارة يؤلون وتارة يرجعون ما وصلوا إليه إلى الكشف ، وما سر تنوع تـأويلاتهم فـي هـذا الميدان رغم وحدة الحروف؟

والمنهج المناسب لهذه الدراسة هو : التحليلي النقدي ، حيث تحليـل النصـوص ، ونقد بعض الآراء عند الضرورة .

ويمكن تلخيص تساؤلات البحث فيما يلي :

-لماذا اهتم المسلمون بالحروف ، وما هي مصادر دراستها ؟

-لم اختلفوا حول دراستها رغم وحدتها؟

-لماذا ارتبطت الحروف بعلوم أخرى بشكل ملحوظ ؟

-كيف نظر الصوفية خاصة إلى الحروف ؟ وكيف تناولوها من وجهـة نظـرهم ؟ وما منهجهم في ذلك ؟

-هل وصل الصوفية إلى إدراك ماهية الحروف وحقيقتها ؟

وللإجابة عن التساؤلات السابقة سوف أتناول البحث من خلال النقاط التالية:

-الإشكاليات المختلفة التي تثيرها دراسة الحروف .

-جوانب دراسة علم الحروف .

-الحروف لدى الفلاسفة .

-ميتافيزيقا الحروف لدى الصوفية .

-الحروف من الميتافيزيقا إلى التطبيق .

-الحروف في الفكر الإسلامي المعاصر .

والله الموفق

تثير دراسة الحروف في الفكر الإسلامي إشكاليات عديدة يمكن تناول بعضها فيما يلي:

١ – التسمية الاصطلاحية :

حيث لم يرد في أمهات الكتب الاصطلاحية مسمي اصطلاحي واحد يطلق على دراسة الحروف، بل وردت مسميات عديدة لهذه الدراسة، فهو علم الحروف، وعلم أسرار الحروف، وعلم خواص الحروف، وعلم التصرف بالأسماء والحروف، كما أنه علم الحروف والأسماء.

ويبدو من هذه التسميات السابقة أنها تشير إلى مضمون واحد وهو دراسة الحروف، ولكنها تشير أيضًا إلى الغاية والهدف من البحث في هذا العلم، وهذه على ما يبدو مختلفة.

كما أن مسمى علم الحروف ليس دقيقاً تماماً في المفهوم المعاصر ، حقاً درج القدماء على اطلاق اسم علم على ميادين البحث والدراسة في هذا الوقت ، ولكن المفهوم المعاصر لكلمة علم لا يناسب هذا النوع من الدراسة المجردة ، فلا هي تتناول الكميات دائماً ولا تخضع للمنهج التجريبي بصفة عامة ، إذن مسمى (علم الحروف) ليس دقيقاً تماماً ، أما اصطلاح (فلسفة الحروف) فقد يناسب هذا اللون من البحث المجرد ؛ حيث البحث في ماهيات الحروف ، وتناول التساؤلات المثارة حولها وفق وجهات نظر ذاتية مختلفة ، وربما يصبح مصطلح (ميتافيزيقا الحروف)أكثر دقة في التعبير عن هذه الدراسة الموغلة في التجريد ، والتي تتناول أموراً غيبية كالألوهية والوجود مثلاً ؛ ولهذا فإن التسمية الاصطلاحية الأدق هن (ميتافيزيقا الحروف) ، ولكن قد ألجأ كثيراً للاصطلاح الشائع لدى القدماء وهو (علم الحروف) لأن تلك النصوص القديمة تفرض علينا ذلك .

ومن ناحية أخرى ارتبط بعلم الحروف علوم أخرى كثيرة ، حتى أن بعض الباحثين ذهب إلى أن : " تحت هذا العلم مائة وثمانية وأربعون علماً "[١]. ولا يخلو هذا العدد من مبالغة كبيرة، إذ لم يقم أي من الباحثين بحصر عدد معقول من هذه العلوم .

ولكن يمكن القول إنه يندرج تحته علوم مثل: (السيمياء – الاوفاق والتراكيب–

(١) صديق بن حسن القنوجي : أبجد العلوم ، ط١، درا الكتب العملية ، بيروت ، لبنان، ١٩٨١م . ج١٥٢/٢.

الجفر – حساب الجُمل – الطلسمات – العزائم – الزايراجة) (*) .

(*) – السيما هي العلامة ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (الفتح: ٢٩)، والمقصود بها في الآية الكريمة إما الخشوع والوقار، وإما أن علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة . انظر: الشوكاني: فتح القدير، دار الفكر ، د.ت ، ج٥/٥٦.
ولفظ سيميا أو سيمياء عبرانى معرب أصله سيم يه ومعناه اسم الله ، وقد جاء في بحر الجواهر أن السيمياء علم يكون به تسخير الجن.
وفي أبجد العلوم هي السحر الأبيض الذي لا يضر، وتتفرع من السيمياء سبعة فروع هي: علم التنجيم – علم الطبائع – علم الحروف – علم الكواكب والأفلاك والبروج والمنازل – علم الأعداد – عمل الأوفاق – علم الأسماء والرقي .
انظر: محمد بن يوسف الطبيب الهروى: بحر الجواهر في تحقيق المصطلحات الطبية ، طهران ، ايران، ١٣٨٨ه . ص٢٠٨. وكذلك: صديق حسن خان: أبجد العلوم ، ج٢/٣٣٢ :٣٣٤.
–الأوفاق والتراكيب : من فروع علم الأعداد لأنه يتوقف على الحساب ، وهو عبارة عن جداول مربعة متساوية ، يوضع فيها أرقام عددية أو حروف ، بشرط ألا يتكرر العدد أو الحرف ، وذلك بهدف استخلاص خواص روحانية من هذه الأعداد.
انظر: حسن صديق خان : أبجد العلوم ، ج٥/٧٩. وحاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، لبنان، د.ت . ج١/٦٣٣:٦٦١.
–الجفر: يُزعم أنه العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوى على كل ما كان وما يكون كلياً وجزئياً، وقد ادعى طائفة من الشيعة أن الإمام عليّ وضع الحروف الثمانية والعشرين عن طريق البسط في جلد جفر؛ ليستخرج منها بطرق مخصوصه وشرائط معينة ألفاظ مخصوصة.
وقيل إن الجفر والجامعة كتابان لعليّ – رضى الله عنه – ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث التي تحدث إلى انقراض العالم.
راجع: حاجى خليفة: كشف الظنون ، ج١/٥٩٢،٥٩١. ومحمد على التهانوى: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تحقيق: د. على دحروج ، ط١، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت لبنان ، ١٩٩٦م . ج١/٥٦٨.
–حساب الجُمل (بضم الجيم وفتح الميم وتضعيفها) ، وهو وضع الحروف بالترتيب الأبجدي لترمز إلى الأعداد، ولكل حرف عدد يدل عليه، فحروف أبجد هوز حطى تستغرق من الواحد إلى العشرة، وحروف كلمن من العشرة إلى الخمسين ، وهنا يتفق الترتيبان المشرقي والمغربي ويختلفان في بقية الحروف والتي تستغرق من الستين إلى المائة ، ثم من المائتين إلى الألف، وهذا النوع فرع من الحساب العملي.
للتفصيل يرجع إلى: التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، ج١/٥٨،٥٧.
وأيضا: محمد كاظم الطريحي: الصوفيون والحرفيون،ط١، دار المرتضى، بيروت، لبنان،٢٠٠٤م. ص٤٥.
–الطلمسات : (بفتح الطاء وكسر اللام) ، ومعناه عقد لا ينحل ، وقيل إن اسمه المسلط أيَضاً ، وهو علم باحث عن كيفية تركيب القوى السماوية الفعالة مع القوى الأرضية المنفعلة في الأزمنة المناسبة للفعل والتأثير، وهو قريب إلى علم السحر. راجع: حسن صديق خان: أبجد العلوم، ج٢/٣٦٧.
وكذلك : التهانوى: كشاف اصطلاحات الفنون، ج٢/١١٣٩،١١٣٨.
–علم العزائم : يشتق اللفظ من العزم وتصميم الراي، وفي الاصطلاح الإيجاب والتشديد والتغليظ على الجن والشياطين بلفظة عزمت عليكم، والتي توجب عليهم الطاعة والإذعان، وقد أباحه البعض وحرمه البعض واعتبره من السحر المحرم. انظر: حسن صديق خان : أبجد العلوم ، ج٢/٣٨٣،٣٨٢.
وحاجى خليفة : كشف الظنون ، ج٢/١١٣٨،١١٣٧.
–علم الزايرجة : ويطلق عليه أيضاً الزائرجة ، هو من القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب ، وهو عبارة عن دائرة كبيرة في داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات والروحانيات، وعلى كل أوتار هذه الدوائر حروف لها دلالات . راجع: حسن صديق خان: أبجد العلوم ، ج٢/ ٣١١ :٣١٤.
وحاجى خليفة : كشف الظنون ، ج٢/٩٤٨.

وربما كان العلم الأكثر ارتباطاً بالحروف هو علم الأعداد(**) .

ويثير ارتباط علم الحروف بهذه العلوم السابقة وغيرها تساؤلاً حول مشروعية هذا العلم ؛ وذلك لأن اغلب هذه العلوم تدخل في باب العلوم المذمومة ، وموقف الشرع منها معلوم.

وقد أثار الغزالي (ت: ٥٠٥ه) هذه القضية ، إذ كيف يكون الشيء علماً ، ويكون مع كونه علماً مذموماً ، وذهب إلى أن : " العلم لا يذم لعينة وإنما يذم في حق العباد " [١] . وقد ذكر الغزالي ثلاثة اسباب لذلك:

- الأول: أن يكون مؤديًا إلى الضرر إما لصاحبه أو لغيره ، وذلك كعلم الطلسمات والسحر.
- الثاني: أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر كعلم النجوم ، فإنه غير مذموم لذاته ، ولكن الشرع ذم قسم الأحكام المتفرع منه .
- الثالث: " أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغنى"[٢].

ووفقاً لما ذهب إليه الغزالي فإن هذه العلوم السابقة لا تخلو من الأسباب التي ذكرها ، فهل يدخل علم الحروف أيضًا في باب العلم المذموم ؟ سوف أرجئ تناول هذه القضية في موضعها من البحث .

٢ – النشأة:

اختلف الباحثون أيضًا حول تحديد نشأة تاريخية محددة لهذا العلم فيرجع بعض الباحثين أصول علم الحروف إلى ما قبل الإسلام ؛ فظاهرة تقطيع الحروف وإعطاء قوة سحرية لبعض هذه الحروف كان أمراً معروفاً قبل النبوة [٣].

واذا ما تتبعنا – في عجالة النشأة – التاريخية لهذا العلم نجد أنه ليس له ظهور واضح بمعناه الاصطلاحي في القرنين الأول والثاني الهجريين ، باستثناء ما وجد لدى المعتزلة من آراء حول الآيات المحكمات والمتشابهات، والتي منها الحروف المقطعة في

(**) علم العدد هو من أصول العلم الرياضي ويسمي علم الحساب وهو نوعان: نظرى: وهو الأرثماطيقي ويبحث فيه عن ثبوت الأعراض الذاتية للعدد، عملي: ويعرف به طرق استخراج المجهولات العددية من المعلومات العددية.

راجع: صديق حسن خان: أبجد العلوم، ج٢/٣٧٧،٣٧٨. وحاجى خليفة : كشف الظنون ، ج٢/١١٣٠.

(١) أبو حامد محمد الغزالي : إحياء علوم الدين ، مكتبه مصر ، ١٩٩٨م .ج١/٤٣.

(٢) قارن المصدر نفسه ، ج١/٤٤،٤٣.

(٣) انظر: د. على زيعور: التفسير الصوفي للقرآن عند الصادق، ط ١، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩م . ص٦٠.

أوائل السور القرآنية ؛ وما نتج عنها من خلافات عقائدية ومذهبية فيما بعد بين الفرق الكلامية . وأصل ذلك خلافهم في قراءة قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران:٧).

وهذا ما أشار إليه ابن الوزير الزيدي (ت: ٨٤٠هـ) حيث قسم خلافات المتكلمين إلى أصلين هما : سمعي وعقلي ، وحصر السمعي منها في أمرين هما : اختلافهم حول معرفة المحكم والمتشابه والتمييز بينهما حتى يرد المتشابه إلى المحكم ، واختلافهم حول علمهم بتأويل المتشابه [١].

كذلك ما نسب إلى جابر بن حيان(*) (ت: ١٩٤هـ) من محاولته البحث في خصائص الحروف ؛ ليصل إلى النسب والمقادير التي يمكن عن طريقها التحكم في المادة [٢].

لذلك يرجع الباحثون البداية الحقيقية لعلم الحروف إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين، ولن أطيل هنا في تتبع النشأة التاريخية لهذا العلم ، وأحيل القارئ إلى بعض المراجع التي بسطت هذا الأمر(**).

---

(١) راجع: ابن الوزير الزيدي : إيثار الحق على الخلق ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ١٩٨٣م . ص٨٦.

(*) أبو عبدالله جابر بن حيان عبدالله الكوفي ، كيميائي وطبيب وصوفي ، ينسب إلى مدينة حران بالعراق وطوس بخراسان، تتلمذ على يد الإمام جعفر الصادق وعلى خالد بن يزيد الاموي، ينسب إليه اشتغاله بكيمياء تحويل العناصر الرخيصة من رصاص ونحاس إلى ذهب بفعل حجر الفلاسفة ، من مؤلفاته : كشف الأسرار – خواص أكسير الذهب.

انظر في ترجمته تفصيلاً : أبوالفرج محمد بن إسحاق النديم : الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د.ت. ص٤٩٨.

وكذلك: د. مصطفى محمود سليمان : تاريخ العلوم والتكنولوجيا ، ط ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٧م. ص٢٧٥-٢٨٠.

وكذلك د. محمد فارس : موسوعة علماء العرب والمسلمين ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٣م . ص١١٠-١١٢.

وأيضا:جورج طرابيشي:معجم الفلاسفة، ط٣، دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت،لبنان، ٢٠٠٦م.ص٢٥٤.

(٢) د. محمد كمال إبراهيم جعفر: من التراث الصوفي لسهل بن عبدالله التستري ، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤م . ص٣٦١.

(**) يرجع إلى د. كامل مصطفى الشيبى ، الفكر الشيعي والنزعات الصوفية ، ط١، مكتبة النهضة، بغداد ، ١٩٦٦م . ص١٩٠-١٩٩.

وقد عول على المرجع نفسه : محمد كاظم الطريحي :الصوفيون والحروفيون ، ص٦٩ :٧٤ .

٣ – التعريف الاصطلاحي:

وهو إشكالية أخرى تواجهنا ونحن بصدد دراسة الحروف ؛ إذ لا مشكلة حول التعريف اللغوى للحروف ففي لسان العرب : الحرف من حروف الهجاء، والحرف الأداة التي تسمى الرابطة لأنها تربط الاسم بالاسم والفعل بالفعل. كما أن الحرف في الأصل هو الطرف والجانب ، وبه سمى الحرف من حروف الهجاء ، ومنه التحريف في القرآن والكلمة أي تغيير الحرف عن معناه والكلمة عن معناها [١].

وقد وردت مشتقات كلمة الحرف في القرآن الكريم في سته مواضع :

– أربعة منها بمعنى الإمالة والإزالة، كما في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤٦) أي يميلونه ويزيلونه عن مواضعة ويجعلون مكان غيره[٢].

–بمعنى التحرف والتحيز كما في قوله تعالى :

– ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ (الأنفال: ١٦) ، فالتحرف هنا بمعنى الزوال عن جهة الاستواء ، والتحرف من جانب إلى جانب في المعركة ؛ طلباً لمكائد الحرب وخداعاً للعدو[٣].

–بمعنى الشك أو الشرط كما في قوله عز وجل :

– ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ (الحج: ١١) ، وأصله من حرف الشيء وهو طرفه كحرف الجبل مثلاً فإن القائم عليه غير مستقر، وعليه فمن يعبد الله على حرف فهو قلق في دينه على غير ثبات وطمأنينة [٤].

وقد جاء في الحديث: (هذا القرآن نزل على سبعة احرف فاقرءوا ما تيسر منه)[*]. والمراد قراءات أو لهجات، فقد كان للعرب سبع لغات مثل لغة قريش ، وأهل اليمن ، وهوازن ، وغيرها [٥].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩م . مادة حرف، ج٣/١٢٨،١٢٧.

(٢) الشوكاني : فتح القدير، ج١/٤٧٥،٤٧٤.

(٣) المصدر نفس ، ج٢/٢٩٤،٢٩٣.

(٤) المصدر نفسه ، ج٣/٤٤٠.

(*) صحيح البخاري ، باب فضائل القرآن ، حديث رقم ٤٧٠٦ . وسنن الترمذي ، القراءات ، حديث رقم ٢٦٤٣.

(٥) انظر: ابن منظور، لسان العرب ، مادة حرف ، ج٣/١٢٨.

أما المعنى الاصطلاحي لهذا العلم فيمثل إشكالية ، حيث لا نجد تعريفاً واحداً أو مسمى واحداً له – كما سبقت الإشارة – ، بل له تعريفات عدة ومسميات مختلفة اختلف الباحثون حولها، ويمكن القول أن هذه التعريفات تعكس وجهة نظر ذاتيه ، أو لنقل إنها تعكس موقفاً مسبقاً من هذا العلم سواء بالقبول أو الرفض .

فمن ناحية أكد الحكيم الترمذي(*)(ت: بعد ٣٢٠هـ) على قيمة العلم بالحروف كونها أصل الأسماء والأشياء وسائر العلوم ، ومعرفة الأسماء والحروف ، وأكد أن إتقان هذا العلم يعد طريقا هاما لمعرفة الل [١]. " فالعلوم كلها في حروف المعجم ، لأن مبتدأ العلم: أسماء الله ، ومنها خرج الخلق والتدبير في أحكام الله في حلاله وحرامه ، والأسماء من الحروف ظهرت وإلى الحروف رجعت ، هذا مخزون العلم " [٢] .

ويعرفه صاحب (أبجد العلوم) من ناحية ارتباط هذا العلم بأسماء الله الحسنى والحروف المقطعات؛ لذا اعتبره باحثاً عن الخواص المترتبة على قراءة أسماء الله الحسني ، ولذلك لم يعتبره من فروع السحر كما ذهب البعض بل من فروع علم القرآن[٣].

ومن ناحية أخرى ذهب ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) في فصل له بعنوان: (علم أسرار الحروف) إلى أنه المسمي لهذا العهد بالسيمياء، وذلك في اصطلاح أهل التصرف من الصوفية، ونسب ظهوره إلى غلاة الصوفية ممن جنحوا إلى كشف حجاب الحس، وظهور الخوارق على أيديهم والتصرف في عالم العناصر[٤].

ومن الواضح أن ابن خلدون يشير من خلال هذا التعريف إلى الجانب التطبيقي لهذا العلم في المغرب العربي على يد غلاة الصوفية ، حتى أنه ساوى بينه وبين السيمياء

(*) أبو عبدالله محمد بن على الترمذي ، صنفه السلمي ضمن الطبقة الثانية من الصوفية ، صحب أبا تراب النخشبى وأحمد بن خضروية وابن الجلاء وغيرهم ، تنسب إليه فكرة الولاية .

لمزيد من التفصيل عن حياته وعلمه يرجع إلى: الحكيم الترمذي : علم الأولياء، تحقيق: د. سامي نصر لطف ، مكتبه الحرية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٨١م . ص٢٨:٢٠.

وانظر ترجمته في أبي القاسم القشيرى: الرسالة القشيرية ، ط٢ ، دار السلام ، القاهرة ، ٢٠٠٣هـ. ص٢٨.

وكذلك : أبو عبدالرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، تحقيق : نور الدين شريبة ، ط٣ ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٩٧م. ص٢٢٠:٢١٧.

(١) الحكيم الترمذي : علم الأولياء ، ص٣٧.

(٢) الحكيم الترمذي : تحصيل نظائر القرآن ، تحقيق : حسني نصر زيدان ، ط ١، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٦٩م. ص١٠٥،١٠٤.

(٣) صديق حسن خان : أبجد العلوم ، ط١، ج٢/٢٨٠.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م، ص٦٦٤.

متجاهلاً تناولات الصوفية المعتدلين في المشرق من أمثال ذى النون المصري[*] (ت: ٢٥٠ه)، وسهل التسترى (**) (ت: ٢٨٣ه) وغيرهم.

كما أشار داود الأنطاكي (ت: ١٠٠٨ه) إلى أن علم الحروف هو: " علم باحث عن خواص الحروف إفراداً وتركيباً ، وموضوعه الحروف الهجائية ، ومادته الأوفاق والتراكيب، وصورته تقسيمها كماً وكيفاً وتأليف الأقسام والعزائم وما ينتج عنها "[١].

أما التهانوى (ت: ١١٩١ه) فقد ساوى بين علم الحروف والجفر وعلم التكسير، فذهب إلى أن الجفر هو علم يبحث فيه عن الحروف من حيث هي بناء مستقل بالدلالة[٢].

وخلاصة القول إن هذه التعريفات قد عكست تطبيقات هذا العلم في الفترة من القرن السابع وما بعده ، ولكنها لم تشر إلى طبيعته في مراحله الأولى وقد التفت إلى هذا فيما بعد مؤلف (أبجد العلوم) الذي قسم دراسات الصوفية من خلال تقسيم الحروف إلى قسمين:

أحدهما: حروف نورانية تستخدم في أعمال الخير، وهي نص حكيم له سر قاطع ولعله يقصد هنا غاية الصوفية الخلص من هذا العلم وهو استخلاص الأسرار الروحية الكامنة في أسماء الله الحسني أو في الحروف المقطعة.

والآخر: ظلمانية تستعمل في الشر، وهي كل الحروف ما عدا النوارنية ، ولعله يقصد هنا غايات بعض الغلاة فيما بعد من هذا العلم بربطه بأعمال السحر والتنجيم[٣].

٤ – ميدان البحث:

فكما سبقت الإشارة فإن مجال البحث في الحروف رحب ومتنوع ، ويثير تساؤلات عدة بحسب موضوعه ، فعندما يكون الأمر متعلقاً بحروف اللغة العربية أثيرت تساؤلات مثل لم هي على هذا العدد ؟ وما ماهيتها وحقيقتها ؟ وما معناها ؟ لنجد تفسيرات تربط

(*) ذو النون بن إبراهيم ، أبو الفيض ثوبان المصري، متصوف سنى لقب بقطب الوقت. ذكره السلمي في الطبقة الأول من الصوفية، كان له علم بالكيمياء التي أخذ فنونها عن مدرسة جابر بن حيان .
انظر ترجمته تفصيلًا في: القشيرى: الرسالة القشيرية ، ص١١. وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، ط١، دار ابن كثير ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٨م . ج٣/٢٠٦، ٢٠٧. وكذلك جورج طرابيشي : معجم الفلاسفة ، ص٣١٤.

(**) تأتي ترجمته في موضعه .

(١) انظر: حاجى خليفة : كشف الظنون ، ج١/٦٥٠

(٢) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، ج١/٥٦٨.

(٣) صديق حسن خان : أبجد العلوم ، ج٢/٢٣٨.

بين حروف اللغة والعلوم الطبيعية كالرياضيات والفلك مثلا، وذلك ما تناوله أبو محمد سهل بن راهبون الكاتب(*) (ت: ٢١٥ه) ، حيث ذهب إلى أن عدد حروف اللغة العربية ثمانية وعشرون حرفاً على عدد منازل القمر، منها ما يدغم مع لام التعريف وهي أربعة عشر حرفاً مثل منازل القمر المستترة ، وأربعة عشر ظاهراً لا يدغم مثل بقية المنازل الظاهرة . كذلك جعل حركات الإعراب ثلاث: الرفع والنصب والخفض ، وشبهها بالحركات الطبيعية للنار والأرض والفلك(١).

بل وجدت تفسيرات عديدة لمعاني الأبجدية العربية ذاتها بعضها مستوحي مثلاً من قصة آدم : " معنى الأبجد هو أن آدم في المعصية ، هوز أي اتبع هواه فزال عنه نعيم الجنة ، حطى أي حط عنه ذنبه بالتوبة والاستغفار، كلمن أي متكلم بكلمات فتاب عليه بالقبول والرحمة ، سعفص أي ضاق عليه الدنيا ففوض عليه ، قرشت أي اقر بذنوبه فبر عليه بالكرامة ، ثخذ أي أخذ من الله القوة ، ضظغ أي شجع عن وسواس الشيطان..."(٢).

وإذا كان الأمر متعلقاً بالحروف المقطعة في أوائل السور القرآنية أثار الأمر تساؤلات عدة مثل : لم هذه الحروف على هذا العدد؟ ولم هذه الحروف دون غيرها من الحروف الهجائية؟ وما حقيقة تفسيرها والغرض منها؟ وكيف يمكن الكشف عن حقائقها وطلب علتها؟ وقد أشار إخوان الصفا إلى أن العقليين لم يقنعهم التقليد أو التوقيف(*). بل يريدون البراهين والكشف عن الحقائق والعلل، ولهذا فهؤلاء العقلاء : " لا يغنيهم من جوع ما يتأولون من التفسير في هذا المعنى ، بل يطلبون وراء ذلك ما هو أحسن تأويلاً وأبين تفسيراً " (٣).

والحقيقة أن تدبر هذا الأمر ليس قاصراً على العقليين فقط كما رأي إخوان الصفا ، بل كان أكثر مدعاة للتساؤل لدى الذوقيين أي الصوفية ، والذين كانوا أكثر اهتماماً من غيرهم بدراسة هذا العلم وما يرتبط به من علوم أخرى ، حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من

(*) صاحب بيت الحكمة أيام المأمون ، فارسي الأصل ، كان حكيماً فصيحاً شاعراً ، يرجع إليه بداية البحث في الحروف العربية . انظر ترجمته في: ابن النديم، الفهرست، ص١٨٢:١٧٤.

(١) المصدر نفسه ، ص١٦،١٥.

(٢) محمد على التهانوى: كشاف اصطلاحات الفنون ، ج١/٦٦٤،٦٦٣. وقد أشار التهانوى إلى اعتبار البعض أن هذا نصاً لحديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لكن هذا باطلاً.

(*) كما هو معروف في مذاهب أهل السنة والسلف، مع الإيمان بعدم خلوها من حكمه.

(٣) رسائل إخوان الصفا ، مكتب الإعلام الإسلامي ، قم، ايران ، ١٤٠٥ه . المجلد الثالث (الطبيعيات والعقليات) الرسالة التاسعة ، ص٣٧٩.

مذاهبهم ونسقهم الصوفى ، ومؤلفاتهم في هذا الميدان لا تقارن بغيرهم . لذلك مثل منهج الصوفية في تناول الحروف إشكالية أخرى رأيت أن أتناولها في مواضع أخرى بالبحث.

جوانب دراسة علم الحروف:

لقد سبقت الإشارة إلى ارتباط علم الحروف بعلوم أخرى كثيرة ؛ لذا جاءت تناولات الإسلاميين في هذا الميدان متنوعة ومتكاملة سواء لدى الفلاسفة أو الصوفية خاصة ، وتجدر الإشارة هنا – بإيجاز – إلى تناولات بعض الفلاسفة لهذا العلم كمقدمة لازمة ؛ حيث يتداخل بعضها مع آراء الصوفية.

أولاً: الحروف لدى الفلاسفة:

يمكن تمييز عدة جوانب للبحث في الحروف عند الفلاسفة ، حيث يبدو جانباً معرفياً للحروف لدى الكندي (**) (ت: ٢٥٢ه) ، فهو أول من طبق حساب الجُمل – فيما وصل إلينا – ، فقد نقل ابن النديم عن فلاسفة اليونان كلام في فضل القلم ، إذ ذهب أفلاطون إلى أن الخط عقال العقل ، وقرر إقليدس أن الخط هندسة روحانية ، بينما ذهب أرسطو إلى أن القلم هو العلة الفاعلة ، والمداد العلة الهيولانية ، والخط العلة الصورية ، والبلاغة العلة المتممة[١].

أما الكندى فقد ذهب إلى أن القلم على وزن نفاع ، وذلك بجمع القيم العددية للكلمتين ، والتي تتساوى وتصبح مائتان وواحد[٢] (*) .

كذلك كان الكندي أول من تنبه إلى أن الحروف في جملتها تكتسب قيماً عددية إذا أجيد فهم تركيبها وقيمها أمكن التنبؤ بكثير من الحوادث[٣]. كذلك نسب إلى الكندي رسالة بعنوان: (ملك العرب وكميته) تنبأ فيها من خلال قيم الحروف الأربعة عشر الواردة في

(**) أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي ، اختلف الباحثون حول تاريخ ميلاده ووفاته والأرجح أنه توفي حوالي (٢٥٢ه) . فيلسوف العرب المتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية ، وكان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وطبائع الأعداد ، ومصنفاته فيها – بتعبير د. أبوريدة – يفوق كثيراً ما يتوقع من مفكر عربي في ميدان الفلسفة .

راجع: يوسف القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط١، مطبعة السعادة ، مصر، ١٣٢٦ه ص٢٤٧:٢٤٠. وابن النديم : الفهرست ، ص٣٥٧-٣٦٥.

(١) انظر: ابن النديم : الفهرست ، ص١٥.

(٢) المصدر نفسه ، الموضع نفسه.

(*) وذلك بحساب الجمل حيث النون خمسون والألف ثمانون والألف واحد والعين سبعون، فيصبح هذا العدد وهو مجموع كلمة نفاع) مائتان وواحد. وهو نفس القيمة العددية لمجموع حروف كلمة (قلم).

(٣) انظر: د. كامل مصطفي الشيبى: الفكر الشيعي والنزعات الصوفية، ص١٩٢،١٩١.

فواتح السور بأن الدولة العربية ستضمحل في حوالي ستمائة ثلاث وتسعين سنة من بدئها[١]. بينما أشار ابن خلدون إلى أن الكندي في مؤلف له بعنوان: (كتاب الجفر) قد أشار إلى أنه إذا وصل القرآن إلى الثور على رأس ضح بحرفين: الضاد والحاء. وقد يبدو هذا النص السابق غير مفهوم، ولكن ابن خلدون يفسره بأنه يريد أن آخر الزمان سيكون حوالي ستمائة وثمانية وتسعين من الهجرة ، ينزل بعدها المسيح إلى الأرض فيحكم فيها إلى أن يشاء الله[٢]. وما يهمنا هنا هو محاولة الكندي استخلاص الأسرار المعرفية من الحروف خاصة المقطعة .

أما الفارابي(**)(ت: ٣٣٩ه) فقد تناول الحروف من وجهة فيلولوجية ، فكان أول من تنبه من بين مفكرى العرب إلى أهمية اللغة في مجال الفكر والفلسفة والمنطق[٣] ؛ فاصبح رائداً لفلسفة اللغة وذلك من خلال مؤلفه : (كتاب الحروف) الذي يعد نواة أساسية للباحثين في هذا الميدان.

وكتاب الفارابي هذا يعد من أكثر مؤلفاته عمقاً ودراسة للغة وفقهها، ورغم أنه يعد تفسيراً لكتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو، فإن بين الكتابين فروقاً ظاهرة ترجع إلى استفادة الفارابي من علوم العربية[٤].

ولم يكن محور اهتمام الفارابي في هذا الكتاب دراسة حروف الهجاء بل اهتم بالبحث، في حدوث حروف الأمة وألفاظها، وأصل اللغة واكتمالها وعلاقتها بالفلسفة ، كذلك بحث في حروف السؤال عن المقولات بالعربية والفارسية واليونانية ، وحروف السؤال والمعاني الفلسفية الدالة عليها مثل: ما – أي – كيف – هل ، وحروف التساؤلات الفلسفية مثل : هل – لم ، كذلك بحث في حروف السؤال في العلوم المختلفة[٥].

---

(١) المرجع نفسه، ص١٩٢.

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص٤٠٥،٤٠٦.

(**) محمد بن محمد بن طرخان أبو نصر الفاربي ، ينسب إلى فاراب بتركستان ، شرح الكتب المنطقية والفلسفية ، وأوضح ما صعب منها فاستحق لقب المعلم الثاني ، نسب القفطي إليه اكثر من سبعين مؤلفاً في المنطق والفلسفة والموسيقي والرياضيات . انظر ترجمته تفصيلا في: ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج /٢٠٩–٢١٥. وجورج طرابيشى : معجم الفلاسفة ، ص٤٤٩–٤٥١.

(٣) انظر: د. زينب عفيفي : فلسفة اللغة عند الفارابي ، دار قباء للنشر والتوزيع ، القاهرة ، د.ت. ص٤٢.

(٤) انظر: المرجع نفسه ، ص٤٤. وانظر: أبو نصر الفارابي : كتاب الحروف ، تحقيق: محسن مهدى ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، د.ت. ص٣٣.

(٥) لمزيد من التفصيل يرجع إلى أبى نصر الفارابي : كتاب الحروف ، ص٧–٢٠.

أما ابن سينا(*) (ت: ٤٢٨هـ) فقد ألف في الحروف بصفته طبيباً وفيلسوفاً في نفس الوقت ، ومن وجهتين: طبيعية وميتافيزيقية ؛ فجاءت دراساته متنوعة وأصيلة في بابها ؛ ففي مؤلفه : (أسباب حدوث الحروف) تناول ابن سينا – كطبيب متخصص عالما بالتشريح، وكدارس لعلم الصوت – مخارج الحروف وتشريح اللسان؛ ليؤسس لعلم مخارج الحروف(**). الذي هو أساس علم التجويد اليوم.

تناول ابن سينا الحروف كذلك من وجهة نظر ميتافيزيقية بصفته فيلسوفاً؛ فكتب في معاني الحروف الهجائية: (الرسالة النيروزية) ، وقد قصد بها تفسير الحروف الهجائية التي في فواتح السور القرآنية . ويمكن القول إنها ليست المحاولة الأولى بل سبقة كثير من الصوفية والمفسرين إلى ذلك ، ولكن ابن سينا حاول من خلال هذه الرسالة أن يضع تفسيراً أنطولوجياً لأصل الوجود مستمداً أصوله من القرآن الكريم ، أو يحاول أن يجد أصلاً لنظرية الفيض والصدور من خلال تأوله لهذه الحروف.

وقد قسم ابن سينا رسالته إلى ثلاثة فصول:

تناول في الفصل الأول ترتيب الموجودات والدلالة على خاصيته كل مرتبة من مراتبها، فتناول واجب الوجود وصفاته، وما يبدع عنه على الترتيب: العقل، ثم العالم النفسي، ثم عالم الطبيعة(١).

ثم انتقل في الفصل الثاني إلى بيان دلالة الحروف على هذه المراتب مستخدماً ترتيب أبجد هوز، فالألف تدل على البارى ، والباء على العقل ، والجيم على النفس ،

(*) الحسين بن عبدالله بن الحسن بن على بن سينا، الملقب بالشيخ الرئيس ، ترجم لنفسه وقد أورد القفطي كلامه كاملاً ، حصل العلوم الشرعية في سن صغيره ، ثم اتجه لدراسة علوم الحساب والهندسة والطب والفلسفة والمنطق . ذاعت شهرته كطبيب في الغرب وبقيت مؤلفاته الطبية أساس التعليم في جامعة مونبلييه حتى القرن السابع عشر الميلادي .

لمزيد من التفصيل يرجع إلى: ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٥/١٣٢–١٣٧. وابن خلكان : وفيات الأعيان ، مج٢/١٥٧–١٦٢، وكذلك : القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٢٦٨–٢٧٨. وجورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، ص٢٦–٣٠.

(**) هو علم يبحث فيه عن أحوال الألفاظ العربية وخروجها ، ومن أي موضع تخرج ، ويبحث في صفاتها من الجهر والهمس ، وموضوعه بسائط اللغة العربية بحسب مخارجها وصفاتها ، ويستمد من العلم الطبيعي ومن علم التشريح . انظر حسن صديق خان : أبجد العلوم ،ج٢/ ٤٨١ ، ٤٨٢ .

(١) الحسين على بن سينا : تسع رسائل في المحكمة والطبيعيات ، ط١، مطبعة هندية ، مصر، ١٩٠٨م. الرسالة السابعة ، ص١٣٩.

والدال على الطبيعة ، ويعاد الترتيب مرة أخرى في بقية الحروف ، فالهاء تدل على البارى ، والواو على العقل ، والزاى على النفس ، والحاء على الطبيعة... وهكذا[١].

وفي الفصل الثالث عرض ابن سينا تأويلات للحروف المقطعة من منظوره لعملية الفيض والصدور فعلى سبيل المثال أشار إلى أن ما يدل عليه قوله تعالى (ألم): القسم بالأول ذي الأمر والخلق . ومعنى (كهيعص) : القسم الذي للكاف أي عالم التكوين، وإلى المبدأ الأول ينسب الإبداع الذي هو (ي)، ثم الخلق بواسطة الإبداع وهو (ع) ثم التكوين بواسطة الخلق والأمر وهو (ص)، وبين (ك) و(ه) ضرورة نسبة الإبداع ثم نسبة الخلق والأمر، ثم نسبة التكوين والخلق والأمر . وأما معنى (طس) : فهو قسم بالعالم الهيولانى الواقع في التكوين . و(يس) قسم بأول الفيض وآخره ، و(حم) قسم بالعالم الطبيعي ، و(ن) قسم بعالم التكوين وعالم الأمر[٢].

لا شك أن ابن سينا من خلال هذه الرسالة حاول أن يقدم سنداً شرعياً لنظرية الفيض من خلال تأويل الحروف المقطعة، أو لنقل إنها إحدى محاولات الفلاسفة للتوفيق بين الفلسفة والدين ، وإن جانبه الصواب في ذلك ، فقد جاءت تأويلاته بلغة فلسفية غامضة وغير مفهومة ، ولا يتسق مدلولها مع سياق الآيات التي جاءت بعد هذه الحروف ، كما أنها تفتقد إلى السند الشرعي ، ليبقي الأمر مجرد محاولة لاستنطاق هذه الحروف ، وكشف بعض أبعادها الميتافيزيقية ، والتي كان لها أبلغ الأثر فيمن جاء بعده من الصوفية .

ثانياً: الحروف لدى الصوفية:

يمكن تمييز جانبين في دراسة الصوفية للحروف هما:

- الأول : جانب ميتافيزيقي .
- الثاني : جانب تطبيقي .

ويمثل الجانب الأول من الصوفية – على سبيل المثال- : سهل التسترى ، والحلاج (ت: ٣٠٩ه) ، وابن مسرة (ت: ٣١٩ه) ، وابن عربي (ت: ٦٣٨ه) (*) ، أي يستغرق هذا الاتجاه بعض صوفية القرن الثالث إلى السابع الهجري ، ممن اقتصروا على البحث الميتافيزيقي المجرد للحروف ، وهؤلاء لم يهدفوا إلى غايات نفعية مثل : السيطرة على الطبيعة ، أو تسخير قوى عليا ، أو التحكم في المادة بهدف استخراج معادن نفيسة .

---

(١) المصدر نفسه ، ص١٣٩، ١٤٠.

(٢) المصدر نفسه ، ص١٤٠، ١٤١.

(*) تأتي ترجمة كل منهم في موضعه من البحث .

وأما الجانب الآخر فقد مثل مرحلة أخرى متطورة لدراسة الحروف ؛ إذ لم يقف هذا العلم في هذه المرحلة عند حدود البحث الميتافيزيقي أو النظري ، بل انتقل إلى طور التطبيق ، وحقيقة أن هذا الاتجاه عرف في مرحلة سابقة – كما سبقت الإشارة – في صورة محاولات لدى كل من جابر ابن حيان والكندي ، ثم عبر عنه بقوة مسلمة المجريطى الأندلسي(**) (ت: ٣٩٤هـ) ، وبعد القرن السابع الهجرى مرحلة فارقة في علم الحروف ، حيث جاء البوني(*) (ت: ٦٢٢هـ) وهو معاصر لابن عربي ، ولكن إذا كان البحث في ميتافيزيقا الحروف قد نضج واكتمل معالمة لدى ابن عربي ، فإن تطبيقات البوني لهذا العلم كانت ولا تزال الأساس لمن أتى من بعده .

والصوفية محسوبون على هذا الاتجاه والذي يهدف إلى استخراج الأسرار الروحية من أسماء الله الحسني، والتوسل باسم الله الأعظم بهدف المنفعة والسيطرة على الطبيعة ، وتسخير الجن وما إلى ذلك كما سيأتي بيانه ، وهذا يثير تساؤلات عديدة .

وتبرز هنا إشكالية المنهج : فمن المعروف أن منهج الصوفية الذوقي – المقابل للعقلي– وما يتعلق به من اصطلاحات منهجية أخرى مثل: الإلهام – البصيرة – الحدس – الكشف ، وكلها أدوات للمعرفة عند الصوفية ، فهل انتهج الصوفية دائماً نفس المنهج في دراستهم للحروف من هذين الجانبين؟

الواقع أن العقل ليس مرفوضاً تماماً كمصدر للمعرفة لدى كل الصوفية : " المعرفة هي حصيلة مجموع الطاقات البشرية كلها من روحية وعقلية وإرادية " (١).

وقد كان للعقل دوره البارز ومكانته في مذهب التسترى حيث اعترف: " إن المعرفة حصيلة عقلية " (٢). وعليه قرر بعض الصوفية : " إن علوم المكاشفات لا نهاية لها لأنها عبارة عن سعة العقل في مقامات الجلال والجمال والعظمة والكبرياء والقدس" (٣). وعليه

(**) أبو القاسم مسلمة بن احمد المجريطي ، إمام الرياضيين في الأندلس في وقته ، كانت له عناية بإرصاد الكواكب ، وعنى بكتب بطليموس كالمجسطي ، من مؤلفاته : رسالة الإسطرلاب – ثمار العدد . انظر : أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، نشرة الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩١٢م . ص ٦٩ .

(*) تأتي ترجمته في موضعه من البحث .

(١) د. محمد كما إبراهيم جعفر، من التراث الصوفي لسهل التسترى، ص٢٢١.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٣.

(٣) المرجع نفسه، الموضع نفسه.

فقد دافع التستري عن العقل دفاعاً حاراً ؛ مما جعل ابن عربي ينتقده في قصة من وحى خيال ابن عربى يتخيل فيها أنه قابل سهلاً وجادله في موضوع العقل(١).

وقد تتلمذ على سهل التسترى الحلاج بصورة مباشرة ، ومعروف أن مذهب الحلاج يتسع للتأويلات الرمزية، والتي تخفى باطناً أكثر مما تبدى ظاهراً ؛ كما تتلمذ عليه ابن مسرة بطريق غير مباشر حيث تعرف على حفيد سهل التسترى وأخذ عنه آراءه العرفانية.

ولا جدال حول مكانة العقل في مذهب ابن مسرة، فهو الفيلسوف الصوفي الممثل للأفلاطونية الجديدة في المغرب ، والمتبنى لآراء الاعتزال والداعي لها(٢).

أما ابن عربي والبوني واللذان يمثلان ثنائية (النظر والعمل) في تناول الحروف ، فالأمر بالنسبة لهم يبدو مختلفا ؛ إذ هما يتفقان على أن البحث في الحروف والتوصل إلى إسراراها لا يكون إلا بالكشف والإلهام من الله تعالى ، ولا دور للعقل في هذا- كما سيأتي بيانه- وأتناول فيما يلي إسهامات الصوفية في علم الحروف.

أولاً: الجانب الميتافيزيقي للحروف:

تتضح إسهامات سهل التسترى (*) في دراسة الحروف من خلال مؤلفين:

الأول: (رسالة الحروف) والتي عنى بتحقيقها والتعليق عليها ونشرها الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر، وكان عنوان الرسالة: (زايرجة) ، ولكن التسترى عدل اسمها لأنها خاصة بأسرار الحروف التي تشرح فكرة الخلق ، وليست لها علاقة بالقيم العددية للحروف(٣).

---

(١) قارن: المرجع نفسه، ص٢٢٤.

(٢) انظر: آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمته: حسين مؤنس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١م، ص٣٧١.

(*) سهل بن عبدالله بن يونس بن عيسي وكنيته أبو محمد . أحد ائمة القوم وعلمائهم والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص ، تنسب إليه السهلية ، ذكره السلمي في الطبقة الثانية ، اختصت طريقته بمجاهدة النفس وغالى سهل في هذا كما جعل (المشاهدات مواريث المجاهدات)

انظر ترجمته تفصيلا في أبي الحسن على بن عثمان الهجويرى : كشف المحجوب ، ج٢/٤٤١:٤٢٧ . والقشيرى : الرسالة القشيرية ، ص١٨. وكذلك: ابن العماد : شذرات الذهب، ج٢/٣٤١. وأيضا : ابن خلكان : وفيات الأعيان . ، مج٢/٤٢٩ ، والسلمى: طبقات الصوفية ، ص٢٠٦ : ٢١١

(٣) د. محمد كمال إبراهيم جعفر: من التراث الصوفي لسهل بن عبدالله التسترى، ص٨٠.

الثاني: تفسير القرآن(**) ، والذي يمكن من خلاله استخلاص بعضاً من آراء سهل في الحروف ، وخاصة في معرض كلامه عن تفسير الحروف المقطعة في فواتح السور.

و(رسالة الحروف) موجزة ومختصرة، ورغم ذلك يمكن من خلالها صياغة مذهب التسترى الكلامى والصوفي كما فعل الدكتور محمد كمال جعفر، والذي لاحظ أن هناك آثاراً فلسفية في (رسالة الحروف) استمدها التسترى من الكندى وجابر بن حيان([1]).ولكن يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقرر أن (رسالة الحروف) هي ميتافيزيقا للحروف ، حيث استخلص التسترى من خلالها تفسيراً لعملية الخلق ، وعلاقة الله بالعالم ونظرية في المعرفة، وقوى النفس، وكل ذلك من خلال تأمل الحروف المقطعة في فواتح السور.

وكذلك ذهب بعض الباحثين إلى أن التسترى اهتم خلالها بالعلم الباطني للحروف، معتبراً أنها أصل كل مخلوق ، وأصل علم الله ومنها ظهر أنبياؤه ([2]).

وعلى ما يبدو أن هناك نسخة أخرى أوضح من نص هذه الرسالة التي نشرها الدكتور محمد كمال جعفر، وهي النسخة التي نقل عنها ابن مسرة فيما بعد.

يقول التستري: "إن الله بحكمته جعل الحروف أصلاً ليتركب منها القول ؛ وذلك أن القول ينقسم إلى أقسام كثيرة ، وكل واحد من تلك الأقسام ينقسم إلى المسميات ، والمسميات تنقسم إلى الحروف، والحروف تنقسم إلى الهباء(*). وهي أصول الأشياء"([3]).

وقد أورد ابن مسرة هذا النص في كتابه (خواص الحروف وحقائقها وأصولها)(**). بصورة أوضح حيث يقول: " قال سهل بن عبدالله التستري أن الحروف

(**) لم يفسر خلاله سهل القرآن كاملاً، وإنما دون فيه مجموعة من التعليقات على بعض آيات القرآن ، رغم أنه نشر بعنوان : (تفسير القرآن العظيم) للتسترى.

([1]) د. محمد كمال إبراهيم جعفر: التراث الصوفي لسهل التستري، ص٣٦٣.

([2]) انظر: د. محمد العدلوني الإدريسي: نصوص من التراث الصوفي الغرب إسلامي، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص٩.

(*) الهباء في اللغة: التراب الذي تطيره الريح، أو ينبث في الهواء فلا يرى إلا في ضوء الشمس. انظر: المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروف الدولية، القاهرة، ٢٠٠٥م . ص٩٧١.

وجاء هذا اللفظ في قوله تعالى: (**وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا* فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا**) (الواقعة: ٥-٦) ليشير إلى نفس المعنى اللغوى.

([3]) انظر: نص (رسالة الحروف) بكتاب: د. محمد كمال إبراهيم جعفر: التراث الصوفي ...، ص٣٦٦

(**) نشره د. محمد العدلوني الإدريسي: ونصوص أخرى في كتاب: نصوص من التراث الصوفي الغرب إسلامي .

هي الهباء ، وهي أصل الأشياء في أول خلقتها. ومنها تألب الأمر وظهر الملك ، وإن الله – تعالى ذكره وتقدست أسماؤه– جعلها ثمانية وعشرين حرفاً، أربعة عشر منها ظاهرة ، وأربعة عشر باطنة. فالأربعة عشر الباطنة هي التي ذكرها الله في القرآن في أوائل السور، وهي التي أعطى الله سرها نبينا محمداً (صلى الله عليه وسلم) ، ... وكل حرف منها آية من آياته، وصفة من صفاته. فمن أحاط بمعرفتها فقد اطلع على معنى من النبوة([1]).

ومصلح الهباء الذي استخدمه التستري هنا هو مصطلح قرآني ، جعله التستري مناظراً لمصطلح الهيولي لدى الفلاسفة ، استخدمها ليشرح عملية الخلق من العدم ، فكأنه هنا يشير إلى أن الحروف هي أصل الأشياء وهي مادة صور أجسام العالم([2]).

ولا يخلو كلام الصوفية عن الحروف من فكرة ابن راهبون الكاتب – الذي سبقت الإشارة إليه– عن العلاقة بين الحروف الهجائية ، ومنازل القمر الثمانية والعشرين ولكن سهلاً حاول أن يستخلص من هذه الفكرة نظرية للمعرفة ؛ فكما أن كمال القمر يكون في أربع عشرة منزلة ، يصبح من خلالها مستعداً لتلقي النور حتى يكتمل ويضاهي الشمس ، كذا النفس تستكمل مراحلها حتى تصير عقلاً ، أو تصير عاقلة ، ويحصل لها ذلك بمعرفة هذه الأربع عشرة جملة

التي تشير إليها الحروف المقطعة في فواتح السور([3]).

ومن خلال تمييز التستري بين صفات الذات وصفات الأفعال ، يشير إلى عملية الخلق نفسها ، حيث ذهب إلى أن لله صفات ذات انفرد به ، وصفات أفعال: " بها أوجد ، وبها احتجب وبها تسمي الله "([4]) . وأما صفات الذات فهي: " متعلقة بالله ، والله راجع إلى (هو) ، و(هو) محيط بجميع الأسماء والصفات "([5]).

وقد علق الدكتور محمد كمال جعفر بأن التستري استطاع من خلال هذه التفرقة بين صفات الذات ، وصفات الأفعال أن يؤكد أن هناك علاقة أساسية بين الخالق والمخلوق من خلال صفاته لا من خلال ذاته ([6]).

([1]) د. محمد العدلوني الإدريسي: المرجع نفسه ، ص٢٩، ٣٠.

([2]) انظر: د.محمد العدلوني الإدريسي: نصوص من التراث الصوفي، ص٢٩.

([3]) انظر: نص الرسالة في: د. محمد كمال إبراهيم: التراث الصوفي...، ص٣٧٢، ٣٧٢.

([4]) المرجع نفسه ، ص ٣٦٨ .

([5]) المرجع نفسه ، الموضع نفسه

([6]) المصدر نفسه ، ص٢٤٢

ويقرر التستري في موضع آخر: "والاسم الذي تسمي به الله هو الذي خلق به الخلق، وهو النور الأعظم، والحجاب الأرفع، وهو المزيد، وهو الغيب، وهو الإمكان، وهو أم الكتاب، ... وفيه جميع ما كان وما يكون"([1]).

وقد جعل التستري علاقة بين الحروف وعلامات الإعراب والقوى النفسية ، حيث ذهب إلى أن أصل الحروف وأشرفها ثلاثة : الألف، ثم الواو، وتليهما الياء، وكذا فالقوى النفسية ثلاث أيضًا وتكون كالتالي:

١- الألف: وهي القوة الناطقة ، ويناسبها حركة النصب ، واعتبر التستري هذه الحركة من طبيعة الفلك ، فليست هي خفضاً ولا رفعاً. ولهذه القوة خمس قوى هي : العقل ، والذكر، والفهم ، والفكر، والتخيل.

٢- الواو: وهي للقوة الحيوانية ، وحركتها اشد الحركات وأقواها وهي الرفع ، ولها من القوى : البصر، والسمع ، والشم ، والذوق ، واللمس ، والغضب ، والحركة.

٣- الياء : وهي للقوة الطبيعية ، ولها أنقص الحركات وهي الخفض، ولها من القوي : "الناشقة ، والماسكة ، والمخيلة ، والدافعة ، والقاسمة ، والغاذية ، والمصورة ، والمولدة "([2]). وهذه القوى يتحكم فيها الحر، والبرد ، واليبوسة ، والرطوبة([3]).

وهذه القوى هي صور روحانية ، أربع عشرة منها طبيعية ، وأربع عشر منها نفسية ، فإذا كانت مادتها الهواء كانت أرواحاً وأنفساً ، وإذا كانت مادتها الماء كانت أجساماً([4]).

وقد شغل سهل بتفسير قوله تعالى: (بسم الله الرحمن الرحيم) وفواتح السور، ويقرر أن لكل كتاب أنزله الله تعالى سر، وسر القرآن فواتح السور لأنها أسماء وصفات ، ففي تفسير قوله (بسم الله الرحمن الرحيم) يذهب سهل إلى أن: " الباء بهاء الله عز وجل ، والسين سناء الله عز وجل ، والميم مجد الله عز وجل ، والله هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها ، وبين الألف واللام منه حرف مكنى غيب من غيب إلى غيب،

([1]) المصدر نفسه ، ص٣٦٨

([2]) قارن : المرجع نفسه ، ص٣٦٩.

([3]) المرجع نفسه ، الموضع نفسه.

([4]) المرجع نفسه، ص٣٦٩.

وسر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة ، لا ينـــال فهمـــه إلا الطـــاهر مـــن الأدناس ، الآخذ من الحلال قوام ضرورة الإيمان "[١].

وأما الحروف المقطعة فيذهب سهل إلى أن معنى قوله عز وجل : (ألم) هو اسم الله عز وجل، فيه معان وصفات يعرفها أهل الفهم به ، غير أن لأهل الظاهر فيه معاني كثيرة ، وهذه الحروف إذا انفردت يكون معناها : " الألف تأليف الله عز وجل ، ألف الأشياء كما شاء ، واللام لطفه القديم ، والميم مجده العظيم "[٢].

ويشير سهل إلى أن فواتح السور مثل: (ألمص ، ألر، ألمر، كهعـــيص ، طســـم ، حمعسق) ، إذا جمعت حروفها بعضها إلى بعض كانت اسم الله الأعظم، أي إذا أخذ مـــن كل سورة حرف بحسب ترتيب السورة وما بعدها مثل: (ألر، حم، ن) ، فيكون مجموعها الرحمن[٣].

وقد أخذ التستري هذه الفكرة السابقة عن الإمام علىّ ، حيث نقل عنه قوله: " هذه أسماء مقطعة ، إذا أخذ من كل حرف لا يشبه صاحبه ، فجمعن ، كان اسما مـــن أســـماء الرحمن ، إذا عرفوه ودعوا به كان الاسم الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب "[٤].

وينقل سهل عن ابن عباس في تفسيره ل ــ(ألم) : "أقسم الله تعالى أن هذا الكتـــاب الذي أنزل على محمد هو من عند الله فقال : الألف الله ، واللام جبريل ، والميم محمـــد ، فأقسم الله بنفسه ، وجبريل ومحمد عليهما السلام "[٥].

ثم جعل التستري في النهاية أن أشرف الحروف هي الحروف التي أخبر الله عنها في القرآن ، وهي حروف القلم واللوح والكن والصاد([٦]).

يمكن القول إن تناول التستري الميتافيزيقي والفلسفي للحروف كان له أبلغ الأثـــر فيمن جاء بعده ، فقد تأثر به الحلاج ، والذي تتلمذ عليه فترة أثناء وجوده في تستر التي

---

(١) التسترى: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، وسعد حسن محمد علـــى، دار الحـــرم للتراث، القاهرة، ٢٠٠٤م ، ص٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٨.

(٤) انظر: التستري : تفسير القرآن ، ص٨٨.

(٥) المصدر نفسه ، الموضع نفسه.

(٦) المصدر نفسه ، ص٣٧١، ٣٧٢.

ينسب إليها التستري[١]. مما جعل بعض الباحثين يؤكد أنه رغم رفض سهل لأفكار مثل الحلول والوحدة فإنه يظل مسؤولاً عن هذه الآراء التي أثرت في الحلاج ، وغيره[٢].

ولم تختلف تفسيرات الصوفية للقرآن كثيرا، وكذا لم يختلف تفسير كل من سهل والحلاج خاصة للحروف المقطعة في فواتح السور. ولا يهمنا هنا عرض تفاصيل حياة أو مذهب الحلاج (*) ، ولكن أشير إلى بعض أقواله في الحروف ، والتي تدور حول محور واحد ، وهو أن أساس كل العلوم الحروف المقطعة ، ولا توجد للحلاج رسائل خاصة للحروف ولكن يمكن تلمس شذرات من أقواله المتناثرة تشير إلى موقفه منها .

يقول الحلاج في (نصوص الولاية): "الحروف لسان كل علم ، ولسان القرآن الأحرف المؤلفة ، وهي مأخوذة من خط الاستواء ، اصله ثابت وفرعه في السماء ، وهو ما دار عليه التوحيد "[٣]. ويقول: " الحروف آياته ، ووجوده إثباته ، ومعرفته توحيده ، وتوحيده تمييزه عن خلقه "[٤].

ويؤكد هذا الرأي في تفسيره لقوله تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) (محمد: ١٩) ، حيث أشار إلى أن العلم الذي دعي إليه المصطفى (صلى الله عليه وسلم) هو علم الحروف في لام الألف ، وعلم لام الألف في الألف ، وعلم الألف في النقطة ، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية ، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل ، وعلم الأزل في المشيئة ، أي المعلوم ، وعلم المشيئة في غيب الهو، وهو الذي دعا الله تعالى إليه ، قال: (فاعلم أنه) ، والهاء راجع إلى غيب الهوية[٥].

---

(١) انظر: على بن أنجب الساعدى البغدادي : أخبار الحلاج ، تحقيق: موفق فوزى الجبر، ط٢ ، دار الطليعة ، سوريا ، ١٩٩٧م . ص٢٣.

(٢) المرجع نفسه ، ص٢٤٩.

(*) الحسين بن منصور الحلاج ، كنيته أبو مغيث ، وهو من أهل بيضاء بفارس ونشأته كانت بواسط بالعراق ، اختلف المشايخ في أمره بين مؤيد له ورافض لأقواله ، انتهى الأمر بمقتله بفتوى من الفقهاء ، من أقواله : (حجبهم بالاسم فعاشوا ، ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا ، ولو كشف لهم الحجاب عن الحقيقة لماتوا) . انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ،ج١٤٠/٢ .و ابن العماد :شذرات الذهب ج٤١/٤ .وكذلك السلمي :طبقات الصوفية ،٣٠٧-٣١١.

(٣) قاسم محمد عباس: الحلاج الأعمال الكاملة ، ط١، بدون دار نشر، بيروت ، ٢٠٠٢م.ص٢٣٠.

(٤) المرجع نفسه، ص٧٣.

(٥) المرجع نفسه ، ص١٤٤.

ولا يخفى أن أسلوب الحلاج الرمزي لا يتسم بالوضوح كثيراً ، لكن يمكن أن نستخلص منه أنه يضفى قداسة علم الحروف ، حيث جعله العلم الحقيقي الذي دعا إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وفي تفسير معنى (ألمص) يشير الحلاج إلى أن: " الألف الف المألوف، واللام لام الآلاء ، والميم ميم الملك ، والصاد صاد الصادقين"(١). وفي موضوع آخر يشير إلى معنى آخر للصاد فيقول: " الصاد صاد اتصال من اتصل به ، وانفصال من انفصل عنه ، وفي الحقيقة لا اتصال ولا انفصال ، وهذه الألفاظ تجرى على حسب العبارات ، ومعادن الحق مصونة عن الألفاظ والعبارات "(٢).

هذه بعض شذرات من تأويلات الحلاج للحروف ، لا تختلف كثيراً عن تأويلات التستري ، ولا يحيد عنها بقية الصوفية كثيراً ، ولكن الأمر متروك دائماً للكشف ، ولثمار تجربة الصوفي الذوقية .

وثمة صوفي آخر قدم دراسة ميتافيزيقية أخرى للحروف وهو ابن مسرة (*) (ت: ٣١٩ه) ، والذي يعد من أوائل متصوفة الأندلس ذوى النزعة الفلسفية فهو من جهة تأثر بآراء المعتزلة في حرية الإرادة ودعا لها ، مما أثار فقيه قرطبة في هذا الوقت فألف ضده كتاباً يفند فيه آراءه ، كما تأثر بآراء أنباذوقليس عن وحدة الوجود ومن جهة أخرى تأثر بمذاهب صوفية المشرق من أمثال ذي النون المصري ، والتستري ، بالإضافة إلى بعض آراء الباطنية ، وكان لمذهب ابن مسرة أبلغ الأثر في ابن عربي حيث نقل الأخير آراء ابن مسرة إلى المشرق(٣).

ما من شك أن ابن مسرة قد اطلع على تراث التستري وبخاصة (رسالة الحروف) ، فخاض في هذا النوع من البحث الوجداني الباطني المتعمق ، وصنف هو الآخر رسالة في

---

(١) المرجع نفسه ، ص١١٦، ١١٧.

(٢) المرجع نفسه ، ص١١٧.

(*) محمد بن عبدالله بن مسرة (٢٦٩ه-٣١٩ه) ، أول مفكري الأندلس ، كان يستر آراءه وراء نسكه وزهادته ، كما كان يعتزل مع تلاميذه في جبل بقرطبة حتى لقب بابن مسرة الجبلي ؛ وذلك خوفا من بطش الفقهاء ، وربما هذا سبب ضياع كتبه كلها فبقي منها : كتاب الحروف – كتاب التبصرة – كتاب المنيبين أو المتقين.

انظر: جورج طرابيشي : معجم الفلاسفة ، ص٣٣. وآنجل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٣٧١: ٣٧٧. وكذلك: كروث إيرنانديث : تاريخ الفكر في العالم الإسلامي ، ترجمة : عبدالعال صالح ، ط٢ ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٦م. ج٢/٥١.

(٣) يرجع إلى: آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٣٧١: ٣٧٣.

(خواص الحروف وحقائقها وأصولها) نقل فيها بعضاً من آراء التستري خاصة – كما سبقت الإشارة – . وقد تناول ابن مسرة في هذه الرسالة الخواص الروحية لأسماء الله الحسني ، وبحث عن الاسم الأعظم ، والخصائص الروحية للحروف المقطعة في أوائل السور.

وقد أوضح ابن مسرة منهجه الذي انتهجه في هذه الرسالة ، وفي صياغة مذهبه بصفة عامة ، والذي استنبطه من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤) ، حيث ساوى بين الفكر والاعتبار، وقد ألف في ذلك رسالة (الاعتبار) (*) . أو (التبصرة) يشرح فيها هذا المنهج يقول ابن مسرة : " إن الله عز وجل إنما جعل لعباده العقول التي هي نور من نوره ؛ ليبصروا به أمره ، ويعرفوا بها قدره ، ... فالعالم كله كتاب حروفه كلامه ، يقرأه المستبصرون بعيان الفكرة على حسب أبصارهم وسعة اعتبارهم ، وأبصار قلوبهم تقلب في الأعاجيب الظاهرة المكنونة المكشوفة لمن رأي "(١).

ويستمد ابن مسرة هذا المنهج من آيات القران الكريم التي ورد فيها الأمر بالتدبر والتفكر والنظر، كما في قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥) ، يقول: " فتبين لك أن كل ما خلق من شيء موضوع للفكرة ، ومطلب للدلالة. وقال في أوليائه المستبصرين الذين أثنى عليهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ (أل عمران: ١٩١) "(٢).

والاعتبار عند ابن مسرة هو الطريق والمنهج الذي يتم به استنباط الحقيقة ، فهو منهج تفكيري تأملي ، ولكن ليس بنفس معنى الفلاسفة ، بل بمعنى خاص حيث لا يستقل العقل فيه عن الوجدان العرفاني الباطني ، وبعبارة أخرى هو منهج ينتقل به من الظاهر إلى الباطن ، فهو نوع من الكشف الباطني(٣).

(*) نشرها الدكتور محمد العدلوني الإدريسي ضمن: نصوص من التراث الصوفي الغرب إسلامي .

(١) ابن مسره: رسالة الاعتبار، ضمن د. محمد العدلوني الإدريسي: نصوص من التراث الصوفي ، ص٥٧.

(٢) المرجع نفسه ، ص٥٨.

(٣) انظر: المرجع نفسه ، هامش ص٢٣.

وقد شغل ابن مسرة بالاسم الأعظم كغيره من الصوفية ، وهو عنده أول الأسماء الحسني الذي ابتدأ به فاتحة الكتاب[١]. كما ذهب إلى أن (بسم الله الرحمن الرحيم) هي أول مراتب العلم وأعلاها واشرفها ، كما أنه يشتمل على لطائف القرآن ودقيق معانيه[٢].

ويستفيض ابن مسرة في استخلاص قيم روحية عرفانية من (بسم الله الرحمن الرحيم) كل اسم منها على حدة، فمثلا: " من (الرحيم) يستدل على أن الله مصور شاهد محي مميت ظاهر قريب "[٣].

ثم يشير إلى أن كل اسم إذا ارتبط بآخر اشتمل على معنى باطني ، فعلى سبيل المثال: " من الألوهية مع الرحمن تعلم أن العقل الكلي (العقل الأول) على مذهب الفلاسفة وقدماء الأمم الضالة ، أهل الفترات الذين لحقوا علم التوحيد من غير نبوة ، إلا أن علمهم في ذلك موافق للأسماء ، غير أن النبوة شرحت ذلك بأقرب بيان وأوضح برهان "[٤].

ومعنى ذلك أن ابن مسرة يشير إلى أن من العلماء من صحت فطرته ؛ فأدرك أسرار الوجود ، لكن ينقصه الإطلاع على حقيقة النبوة ، ولكن الفرق في أن النبي يتلقى النبوة والعلوم المتعلقة بها اختصاصاً ، ويتلقاها العقل الإنساني بالعمل عليها بالفكر والنظر والذوق[٥].

ويثير ابن مسرة إشكالية خلاف العلماء في تأويل حروف القرآن التي في أوائل السور مثل: ألم، وألمص ، وكهعيص ، وطسم ، وغيرها، بأن ذلك ليس جهلاً أو قصور فهمهم عنها، إذ هم أولى الناس من غيرهم بهذا الفهم ، ولكنهم خاطبوا العامة على مقدار أفهامهم ، ولذلك كثر افتراقهم ، وتعذر اتفاقهم في ظاهر اللفظ مع اتفاقهم في باطنه[٦].

ويفهم مما ذهب إليه ابن مسرة أن تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧) الذين ذكرتهم الآية الكريمة أن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه أيضاً ، ويعلمون تأويل هذه الحروف ، وهم متفقون على ذلك في الباطن دون الظاهر.

---

(١) المرجع نفسه ، هامش ص٢٥.

(٢) المرجع نفسه ، ص٢٨،٢٧.

(٣) ابن مسرة : خواص الحروف ، ضمن: د. محمد الإدريسي: نصوص من التراث الصوفي ، ص٢٧.

(٤)المرجع نفسه ، ص٢٧، ٢٨.

(٥) المرجع نفسه ، هامش ص٢٧.

(٦) المرجع نفسه ، ص٢٨.

وعن مكانة الحروف يقول ابن مسرة: " زعم أهل العلم بالباطن أن الحروف التي في مبادئ السور أصل لجميع الأشياء ومنها أظهر الله علمه ، وأن منها الانبياء(*) "[١].

ويستعين بنص التستري الذي يذهب فيه إلى أن الحروف هي الهباء ، وأن الله جعلها ثمانية وعشرين حرفاً ، وتتسلل هنا مرة أخرى فكرة سهل بن راهبون الكاتب الذي جعل عدد هذه الأحرف المذكورة على عدد منازل القمر الظاهرة والباطنة .

ويضيف ابن مسرة لهذه الفكرة أن : " لهذه الأحرف التي في مبادئ السور أسرار غامضة ، وحكمة تعلن كمالها بعد أربعة عشر يوماً ثم ظهوره ثم ينقبض ويرجع إليه وهو مصداق قوله تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود: ١٢٣)، وذلك بعد أربعة عشر إلى آخره"[٢].

كذلك يستعير ما قرره التستري من أن الله سبحانه جعل النفس الناطقة كالقمر، وجعل العقل كالشمس ، والنفس الناطقة تستمد من نور العقل كما يستمد القمر من ضياء الشمس ، ويظهر ذلك العلم الذي استفادته بثمانية وعشرين حرفاً على عدد منازل القمر[٣].

ووفق منهج ابن مسرة فإنه بالاعتبار في هذه الدلائل يمكن الاستدلال على مدة الدنيا – كما فعل الكندي من قبل– وكذلك يمكن الاستدلال على دورة الطبيعة وذلك أنه من خلال النظر إلى القمر وقت استهلاله ، وانتقاله إلى المنازل وقطعه للبروج ؛ لانتهينا من ذلك إلى كيفية مبدأ الأشياء وخروجها من الإمكان ، وزيادتها ونموها وكمالها ، ثم نقصها ، وقبض الروح ، وهكذا[٤].

وسوف أكتفى هنا بعرض بعض تأويلات ابن مسرة للحروف المقطعة حتى لا يطيل بنا البحث :

يحرص ابن مسرة على تأييد آرائه بمن سبقه من الصوفية ممن أشار اليهم (بأهل العلم بالكلام الباطن) ففي تأويله لـ (ألم) يشير إلى أنهم قالوا : "إن (ألم) هو اسم الله الأعظم ، وإن الألف إشارة إلى ذات الله تعالى لانفراد الألف عن الاتصال ، وهو الاسم القديم الأزلي الذي لا يفسر بأكثر من (هو) . ولما كانت اللازم تصحب الألف ، ويتصل بها

(*) سوف نجد هذه الفكرة لدى ابن عربي الذي جعل الحروف أمة ولها أنبياء.

(١) المرجع نفسه ، ص٢٩.

(٢) ابن مسرة : خواص الحروف ، ضمن: د. محمد الإدريسي: نصوص من التراث الصوفي ، ص٣٦.

(٣) المرجع نفسه ، ص٣٦، ٣٧.

(٤) المرجع نفسه ، ص٣٠.

من بين سائر الحروف ، كانت دالة على الحجاب الأول والغيب المكنون وهو الاسم الذي تسمى الله به"[١].

وأما تأويله (كهعيص) فيذهب إلى أن معنى : (الكاف) هي الكن، وهي أمر التكوين الذي أظهر الله به الوجود ، (والهاء) هي الهباء أي أصل مادة صور العالم ، وهي أيضاً الحروف التي نطق الله بها من قبل الخلق ، وهي قوى مفردة نفسية تألفت منها الأمور الباطنة ، و(الياء) كناية عن الروح ، و(العين) كناية عن العلم وهو المعنى الباطن ، و(الصاد) هو المكان الذي ظهر فيه الوجود[٢].

أما تفسيره لـ (طه) ، فذهب إلى أنها قد تكون كناية عن الطور، أو طوى المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (طه: ١٢) ، كما قد تكون كناية عن الطين ، الذي هو أصل كل الموجودات[٣].

وأما (طسم) و(طس) فمعناهما: وحق طور سيناء إعظاماً له ، لأنه الموضع الذي أظهر الله فيه كلامه ، ومن قبله صدر الوحي إلى كل شيء ، ويشير ابن مسرة إلى أن السور التي في أوائلها (طسم) و(طس) فيها بدايات بسيرة خبر موسى وطور سيناء[٤]. وعلى هذا يكون : "معنى الطاء: طور، ومعنى السين : سيناء، ومعنى الميم: موسي. وقيل معناها: أنه أقسم بالطين الذي خلق منه آدم عليه السلام وجميع المخلوقات التي في الأرض "[٥].

ويورد ابن مسرة تأويل التستري للقاف فيقول: " أنه حرف من حروف القلم ...، والقلم تأليفه من ثلاثة أحرف : قاف ولام وميم . والقاف : القدر، واللام : العدل، والميم : المشيئة ، لأن القلم هو الجامع لهذه الثلاثة ، لأن به يظهر الله تعالى قدره ومشيئته وعدله ، فالقلم هو جماع هذه الثلاث صفات. والله تعالى جامع للعدل والحكم والوعد والوعيد ، لأن اللوح ليس شيئاً غير عدله وحكمه الذي حكم ، ووعده الذي وع د، ووعيده الذي حذر"[٦].

---

(١) المرجع نفسه ، ص٣٧.
(٢) المرجع نفسه ، ص٤٥.
(٣) المرجع نفسه ، ص٤٦.
(٤) المرجع نفسه ، ص٤٧.
(٥) المرجع نفسه ، الموضع نفسه.
(٦) المرجع نفسه ، ص٥٠.

أما النون فهي "حرف من أحرف الكني . لما نطق الله به وقام ، كان روحاً ومثالاً لجميع المخلوقات ، ولما قام كان النور أسفل ، وهو نهاية الحركة والكون "[1].

ويشير في موضع آخر إلى سبب جعل النون آخر آيات الكتاب ، لأنها الروح الحامل للأرض ، وهي النسيم المحيط بالأرض ظاهراً وباطنا[2].

يتضح لنا مما سبق ومن خلال تأويلات ابن مسرة للحروف المقطعة أنه كلما تعمق الصوفية في دراسة هذا الميدان كلما ازدادت دراساتهم ثراءً ، فقد جاءت رسالة ابن مسرة أكثر عمقاً ونضجاً عما سبقها ، ورغم تأثره بمن سبقه إلا أنه أضاف لمعاني الحروف المقطعة تأويلات باطنية عرفانية جديدة ، وجاءت رسالته أكثر ثراءً في تناولها لهذه المعاني ، حيث تناول عملية الخلق والإبداع والتكوين ، ودوره الحياة إلى الموت، والمعرفة الإنسانية ، وغيرها من القضايا الميتافيزيقية ، والتي امتد تأثيرها على فلاسفة الإسلام وبخاصة ابن سينا.

لا يكتمل البحث في ميتافيزيقيا الحروف دون الإشارة إلى ابن عربي(*) (ت: ٦٣٨ه) فهو يعد أحد طلاب هذا العلم ؛ فقد احتلت دراسة الحروف مكانة بارزة في مذهبه الفلسفي الصوفي ، ويمكن القول إنه أكثر الصوفية شغفاً بالبحث والتأليف في هذا العلم والذي بلغ طور النضج على يديه .

وقد خصص ابن عربى لدراسة الحروف عدة مؤلفات ؛ فقد استغرق بحثها عدة أجزاء من مؤلفه الأشهر (الفتوحات المكية) ، وخصص لها عدة رسائل منها : (الميم والواو والنون) ، و(الباء) و(توجهات الحروف) كذلك أشار ابن عربي نفسه إلى أنه ألف

---

(١) المرجع نفسه ، ص٥١.

(٢) المرجع نفسه ،ص ٥٢ .

(*) أبوبكر محيى الدين بن على بن محمد الحاتمى الطائي (٥٦٠-٦٣٨هـ) ، لقب بالشيخ الأكبر وسلطان العارفين وبحر العلوم. ولد بمرسية شرق الأندلس ، وأتم دراسة العلوم الشرعية في سن صغيرة . كان كثير التنقل والترحال إلى المشرق ، واستقر به الحال في دمشق وبها توفي ، ترك تراثاً ضخماً من المؤلفات المختلفة في علم التصوف مثيراً للدهشة ، ومن مؤلفاته : لوازم الحب الإلهي – التدبيرات الإلهية – شجرة الكون – اليقين والمعرفة – فصوص الحكم وغيرها. لمزيد من التفصيل عن سيرته الذاتية يرجع إلى : ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٣٢٢/٧-٣٤٨. وكذلك النبهاني : جامع كرامات الأولياء ، ج١٩٨/١-٢١٠. وقد ألف : عبد الحميد فرغلى على القرني : محيى الدين بن عربي ، سلسلة أعلام العرب ، الهيئة المصرية للكتاب ، د.ت . رقم ١١٩، وهو كتاب سيرة ذاتيه مستفيضة عن ابن عربي .

في هذا العلم أيضاً:(المبادئ والغايات فيما تتضمنه حروف المعجم من العجائب والآيات)([1]).

كما أشار إلى كتاب آخر تناول فيه الحروف المقطعة التي في أوائل السور، ولكن لم يذكر اسمه صراحة . ويمكن أن نتلمس آراءه في هذا الكتاب الأخير في (الفتوحات المكية) حيث تحدث باستفاضة عن أسرار (ألم) ، وأيضا في تفسير ابن عربي للقرآن.

ولعل سر اهتمام ابن عربي بدراسة الحروف يرجع إلى طبيعة الحروف الرمزية ، والتي تتسق تماما مع رمزية ابن عربي التي تفسح لها المجال للتأويلات البعيدة . ولوفره إنتاج ابن عربي ، وتفرد آرائه في هذا الميدان ؛ أرى أهمية تناول آرائه في الحروف من خلال عدة نقاط فيما يلي:

١- غايته من دراسة الحروف.

٢- منهجه في دراستها.

٣- ميتافيزيقيا الحروف لديه.

٤- تأويلة للحروف المقطعة في أوائل السور .

١ – غاية ابن عربي من دراسة الحروف:

ذهب ابن خلدون في تعريفه للحروف إلى أن غاية كل من ابن عربي والبوني من علم أسرار الحروف واحدة هي : " تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسني والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان"([2]).

ولكن ابن عربي قد نفى نفسه عن هذه الغاية فصرح أنه لا يعنيه الجانب العملي بل هو قاصر على البحث النظري ، كما أشار إلى أنه تناول الحروف على طريقة ابن مسرة وغيره([3]).

وهنا يشير ابن عربي إلى تفرقة دقيقة لم تكن واضحة من قبل وهي أن علم أسرار الحروف غير علم خواص الحروف([*]) ؛ لذا فهو يبحث في علم أسرار الحروف لا علم

([1]) انظر : ابن عربي : الميم والواو والنون ، بدون دار نشر أو تاريخ نشر ، ص٢.

([2]) ابن خلدون : المقدمة ، .ص ٦٦٤ .

([3]) انظر : ابن عربي : الميم والواو والنون ، ص ٤ .

([*]) وهو أيضًا علم معرفة الخواص الرو حانية ، والذي يبحث في كيفية مزج الأعداد والحروف على التناسب والتعادل بحيث يترتب عليها أرواح متصرفة ، وموضوعه الأعداد والحروف ، وغايته الوصول إلى المطالب الدينية أو الدنيوية أو الاخروية . انظر: حسن صديق خان : أبجد العلوم ، ج٢/٤٩٧-٤٩٨.

خواص الحروف ، ويشير أيضاً إلى أن الخوض في خواص الحروف يؤدي إلى تهمة صاحبه في دينه وإلى تكذيبه([1]).

يقول ابن عربي: "أما تهمته في دينه أن يكون من أهل الكشف والوجود، فيلحق بأهل السحر والزندقة ، وربما كُفر وهو يتكلم عن الأسرار التي أودعها الحق في موجوداته وجعلنا أمناء عليها"([2]). ويقول في موضع آخر: " وأما وجه تكذيبهم فإن المجربين لهذه الأشياء ينبغي أن يكونوا عارفين بصور التركيب وأوقاته وأحكامه وغير ذلك ، فمتى نقصهم من ذلك دقيقة بطل عملهم ، العمل المقصود للعامل ، فلا يقول إنه أخطأ في التركيب ، أو لم يحسن التركيب "([3]).

ويشير ابن عربي من خلال النص السابق إلى منحي آخر عملي في دراسة الحروف يبدو أنه كان شائعاً في عصره ، كما يدل قوله على أنه على دراية تامة به . ولعله قصد بذلك البوني – حيث إنهما متعاصران إلى حد ما – الذي شغل بهذا النوع من البحث في خواص الحروف ، وانتقل بها إلى مرحلة التطبيق العملي .

ويوضح ابن عربي رفضه لهذا الاتجاه ويحذر منه فيقول في نفس الرسالة: "فالسكوت عن العلوم العملية الروحانية بأهل طريقنا أولى من كل وجه ، بل هو حرام عليهم بسطها بحيث يدركها الخاص والعام ، فيستعين بها المفسد على فساده وغايته"([4]).

ذهب ابن عربي إذن إلى تحريم هذا النوع من العلم لما فيه من مفسده ، ولكن يبدو أنه لم يلتزم تماما بهذا الرأي ، ففي إحدى رسائله وعنوانها : (مجموعة ساعة الخبر) بحث ابن عربي عن الأفلاك ومراتبها ووقتها وما يتعلق بها من صفات ، وتأثيرها على الأكوان والإنسان ، كما استخدم حساب الجُمل لأسماء الله الحسني لقضاء الحاجات ، كما ورد في الرسالة كيفية عمل العزائم والأعمال والتنجيم ، بالإضافة إلى بعض جداول الأوقاف وغيرها من أعمال الروحانيين .

فعلى سبيل المثال يشير ابن عربي إلى الساعة الأولى من يوم الأحد ساعة الشمس وهي تطلع في الفلك الرابع ، وينسب إليها الكبر والقوة ، والاستطالة والعجب ، والأنفة والحياء . ولها من البروج برج الأسد ، ومن المعادن الذهب ، ومن اللباس الحرير الأصفر، ومن الملائكة روفيائيل ، ومن الأسماء الحسني يا حي يا قيوم وهذا عدده مائه

([1]) ابن عربي : الميم والواو والنون ، ص٥.

([2]) المصدر نفسه ، الموضع نفسه

([3]) المصدر نفسه ، الموضع نفسه.

([4]) المصدر نفسه ، ص٦.

وأربعة وسبعين . ثم يشير إلى ما هو مناسب من الأعمال لهذا الوقت وما هو غير مناسب وغير ذلك([1]). ومع غموض مثل هذه النصوص وغيرها ، حيث لا تخضع للحاكمية العقلية ، ولا للذوق الصوفي ، فإنها محض تنجيم وصميم الأعمال الروحانية التي حذر منها ابن عربي بل وحرم الاشتغال بها ، لذا يمكن القول إنه ليست لابن عربي غاية واضحة من البحث في هذا العلم.

٢ – منهج ابن عربي في دراسة الحروف:

يصنف ابن عربي العلوم إلى ثلاثة : علوم النظر وهي تتعلق باصطلاح العقائد، وعلوم الخبر وهي تتعلق بالأحكام الشرعية ، وعلوم الذوق وهي: " علم نتائج المعاملات والأسرار، وهو نور يقذفه الله تعالى في قلبك تقف به على حقائق المعاني الوجودية ، وأسرار الحق في عباده ، والحكم المودعة في الأشياء "([2]). وهذا هو منهج ابن عربي والصوفية بصفه عامة ، ويشير ابن عربي إلى أنه : " لو كانت هذه العلوم الإلهية نتيجة عن فكر ونظر لانحصر الإنسان في أقرب مدة ، ولكنها موارد الحق – تعالي– تتوالي على قلب العبد ، وأرواحه البررة تنزل عليه من عالم غيبه " برحمته التي من عنده " و" علمه الذي من لدنه "([3]).

ويشير ابن عربي في اكثر من موضع إلى أن طريقه في دراسة الحروف هو الكشف فعندما يمهد للحديث عن تأويل (ألم) يقول: " إن كان ذلك ليس من الباب ، ولكن فعلته عن أمر ربي الذي عهدته. فلا أتكلم إلا عن طريق الإذن ، كما إنني سأقف عندما يُحد لى "([4]). ويقول في موضع آخر: " فإن تأليفنا هذا وغيره لا يجرى مجرى التواليف ، ولا نجرى فيه نحن مجرى المؤلفين ....، إنما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية ؛ مراقبة لما ينفتح له الباب ، فقيرة خالية من كل علم ، لو سئلت في ذلك المقام عن شيء لما سمعت لفقدها إحساسها "([5]).

ومن المنطقي أن يناسب الحروف المنهج الرمزي ، وأن تحتمل التأويلات ، وتخضع للكشف ، فليس هناك نظر ولا نص قاطع في صحة هذه التأويلات التي ذهب

([1]) قارن: ابن عربي: مجموعة رسائل ابن عربي، ط ١، دار المحجة البيضاء، بيروت ، لبنان، ٢٠٠٠م. ج٣/٣٧٧.

([2]) انظر: المصدر نفسه ، رسالة مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم ، ج٣/٣٦٢.

([3]) محيى الدين ابن عربي : الفتوحات المكية ، تحقيق : د. عثمان يحيى ، ط ٢، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٥م. السفر الأول ، ص٢٥٥–٢٥٦.

([4]) المصدر نفسه، ص٢٦٤.

([5]) المصدر نفسه، ص٢٦٥.

إليها ابن عربي ، بحيث يمكن أن نقرر أن الأمر محض خيال خصب ، أو براعة في التأليف ؛ فقد داعبت هذه الحروف وكذلك حروف فواتح السور خيال ابن عربي ، فراح يستفيض في تأويلها وهو يعلم غموض طريقته وصعوبة فهمها ؛ لذا يرجع الأمر دائما إلى الكشف ، فهو يردد كثيرا أن ما وصل إليه كان عن طريق الكشف بقوله: (كوشفنا)([1]) . كما يشير إلى أن الأمر متروك للإلهام بقوله: " إن ألهمنا الحق ذلك "([2]). فكأن الكشف هنا مخرج لابن عربي من مأزق جدل العقل.

٣ – ميتافيزيقا الحروف لدى ابن عربي:

جعل ابن عربي الحروف من العلوم الخاصة يقول: " إن الحروف سر من أسرار الله تعالي والعلم بها من أشرف العلوم المخزونة عند الله ، وهو من العلم المكنون المخصوص به أهل القلوب الطاهرة من الأنبياء والأولياء ، وهو الذي يقول فيه الحكيم الترمذي:" علم الأولياء "([3]).

لذلك يشير إلى أن العلم بالحروف مقدم على العلم بالأسماء تقدم المفرد على المركب ، فلا يعرف ما ينتجه المركب إلا بعد معرفة المفردات التي تركبت عنه ، ولكن هناك من خالف ابن عربي في هذا الرأي ، فربطوا الحضرة الإلهية في الإيجاد بعالم التركيب من الحروف ، لأن كلمة (كن) جاءت بحرفين ، ولم تأتِ بحرف واحد([4]).

ويقسم ابن عربي الحروف – الهجائية – إلى ثلاث مراتب : الحروف الفكرية ، والحروف اللفظية ، والحروف الرقمية ، ولم يوضح ما الذي يعنيه بالفكرية واللفظية ؛ فالحروف كلها ينطبق عليها نفس التقسيم ؛ إذ هي توجد في الأذهان وتلفظ أيضاً ، ولكنه قسم الحروف الرقمية على الوضع على رتبتين هما : الوضع المفرد وهو حروف أبجد ، والوضع المزدوج وهو أ، ب، ت، ث. وأسقط من الوضع المفرد الحرف المركب (لام الف) ، فبقي ثمانية وعشرون حرفاً أيضاً على عدد منازل القمر([5]) .

والأصل ابن عربي لا يعتبر (الألف) من الحروف ، ويشير إلى أن عند جابر بن حيان الألف نصف حرف ، والهمزة النصف الآخر، فعلى يصبح الألف والهمزة حرفاً واحداً([6]).

([1]) المصدر نفسه، ص٢٣٢.

([2]) المصدر نفسه، ص٢٣٥.

([3]) ابن عربي ، الميم والواو والنون ، ص٢.

([4]) المصدر نفسه ، نفس الموضع

([5]) المصدر نفسه ، ص٢–٣.

([6]) المصدر نفسه ، ص٢.

وللحروف خواص مختلفة ، فهي قد تختلف وقد تتشابه ولكن لكل صنف من الحروف مرتبة وفضائل وأمور تختص بها([1]).

ويحاول ابن عربي من خلال أسرار الحروف أن يكشف أسرار الوجود ، يقول : " إنه لما كان الوجود مطلقاً من غير تقييد، يتضمن المكلف وهو الحق – تعالي– ، والمكلفين وهم العالم – والحروف جامعة لما ذكرنا – أردنا أن نبين مقام المكلف من هذه الحروف من المكلفين على وجه دقيق محقق لا يتبدل عند أهل الكشف إذا وقفوا عليه. وهو مستخرج من البسائط التي تركبت عنها هذه الحروف "([2]) .

ويقدم ابن عربي تقسيماً آخر لمراتب الحروف من حيث علاقتها بالأفلاك ، يقول: "ولما كوشفنا على بسائط الحروف ، وجدناها على أربع مراتب : حروف مرتبتها سبعة أفلاك وهي: الألف والزاي واللام ، وحروف مرتبتها ثمانية أفلاك وهي : النون والصاد والضاد ، وحروف مرتبتها تسعة أفلاك وهي: العين والغين، والسين والشين، وحروف مرتبتها عشرة أفلاك ، وهي باقي حروف المعجم "([3]).

ثم ينسب مراتب الوجود والخلق – وعلى راسها الألوهية – إلى هذه الحروف وأفلاكها ، فالمرتبة الأولى والتي يطلق عليها السبعية ؛ لأن مرتبتها سبعة أفلاك ، وحروفها تكون كلمة (أزل) ينسبها إلى الحضرة الإلهية ، والمرتبة الثانية هي حظ الإنسان من هذه الحروف ، وأما الثالثة (التسعية) والتي مراتبها تسعة أفلاك فهي حظ الجن من عالم الحروف ، وأما باقي الحروف فهي حظ الملائكة من عدد الحروف وهي ثمانية عشر حرفا([4]).

ولا يوضح ابن عربي سر هذا التقسيم، بل يشير فقط إلى أن هذه الحقائق عسيرة الإدراك ، ثم يربط بين وجود أفلاك العناصر وأفلاك الحروف ، فعلى سبيل المثال: الفلك الذي وجد عنه الماء ، وجد عنه حرف الشين والغين والطاء والحاء، والفلك الذي وجد عنه الهواء وجد عنه حروف مثل الصاد والواو وغيرها([5]).

وقد ذهب ابن عربي بعيداً حيث تصور الحروف على إنها أمه من الأمم ، لها مالهم وعليها ما عليهم ، يقول : " إن الحروف أمه من الأمم ، مخاطبون ومكلفون ، وفيهم رسل من جنسهم ولهم أسماء من حيث هم ولا يعرف هذا إلا أهل الكشف من طريقنا ،

([1]) المصدر نفسه ، ص٤.

([2]) ابن عربي : الفتوحات المكية ، السفر الأول ، ص٢٣١-٢٣٢.

([3]) المصر نفسه ، ص٢٣٢.

([4]) المصدر نفسه ، ص٢٣٦.

([5]) راجع: المصدر نفسه ، ص٢٤٩-٢٥٠.

وعالم الحروف افصح العالم لساناً ، وأوضحه بياناً ، وهم على أقسام كأقسام العالم المعروف في العرف "([1]).

يتصور ابن عربي إذن أن الحروف تشكل عالماً قائماً بذاته وبمقوماته ، فعلى سبيل المثال من الحروف من يشكل عالم الجبروت أو العظمة وهي : الهاء والهمزة ، ومنها ما يشكل عالم الملكوت وهي : الحاء الخاء والعين والغين، ومنها ما يشكل العامل الوسط كالتاء والثاء والجيم وغيره ا، ومنها ما يشكل العالم الأسفل ، وهو عالم الملك والشهادة وهي : الباء والميم والواو ... وهكذا إلى آخر الحروف([2]) .

وعوالم الحروف التي أشار إليها ابن عربي لكل منها رسول من جنسهم ، ولهم شريعة يتعبدون بها ، وعليهم من الخطاب الأمر وليس عندهم نهي ، وفيهم عامة وخاصة وخاصة الخاصة([3]).

وقد تناول ابن عربي كل حرف على حدى واعتبر أن كل حرف له مقام واسم وصفة وأسماء وأفعال وأسماء ذات ، فعلى سبيل المثال يقول عن (الألف) : " الألف ليس من الحروف ، ... ولكن قد سمته العامة حرفاً . فإذا قال المحقق : إنه حرف ، فإنما يقول ذلك على سبيل التجوز في العبارة . ومقام الألف مقام الجمع (*) ، وله من الأسماء : اسم الله ، وله من الصفات القيومية ، وله من أسماء الأفعال : المبدئ والباعث والواسع والحافظ ... وله من أسماء الذات : الله والرب والظاهر ... وله من الحروف اللفظية : الهمزة واللام والفاء ، وله من البسائط : الزاي والميم والهاء ..." ([4]) .

وفي رسالة (توجهات الحروف) يخصص ابن عربي لكل حرف دعاء طويل خاص به حيث يبدأ هذا الدعاء بذلك الحرف ، أو بكلمات تحتوى على هذا الحرف ، فعلى سبيل المثال توجه حرف (الألف) أي التوجه بالدعاء بالكلمات التي تبدأ بحرف الألف ، حيث

([1]) المصدر نفسه ، ص٢٦٠.

([2]) قارن ابن عربي : الفتوحات المكية ، السفر الأول ، ص٢٦٠-٢٦١.

([3]) المصدر نفسه ، ص٢٦١.

(*) يرمز الصوفية إلى المقامات غالباً في صورة ثنائيات متناقضة ، ومنها (الجمع والفرق) ، فالفرق ما نسب إليك ، والجمع ما سلب عنك . فما يكون كسباً للعبد فهو فرق ، وما يكون من الحق فهو جمع . ولقد ذهب الصوفية إلى أنه لا بد للعبد من الجمع والفرق ، فمن لا فرق له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له. انظر : القشيرى : الرسالة القشيرية ، ص٤٣-٤٤. وكذلك : د. رفيق العجم : موسوعة مصطلحات الصوفية ، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، بنان، ١٩٩٩م، ص٢٩٩-٣٠١.

([4]) ابن عربي : الفتوحات المكية ، السفر الأول ، ص٢٩٥-٢٩٦.

يقول: " إلهى اسمك سيد الأسماء ..."([1]). وفي توجه حرف (الخاء) يقول: " اللهم خالق المخلوقات "([2]). وفي توجه حرف (الغين) يقول: " رب اغنني عن سواك غنى يغنيني..."([3]). وهكذا إلى آخر الحروف.

وليست للحروف نفس المكانة لدى ابن عربي ، فهو يتصور أن هناك حروفاً مقدسة ، ولكنه لا يعنى بالمقدس هنا ظاهر الكلمة ، بل يقصد أنها حروف لا تتصل في الخط بحرف آخر بينما تتصل الحروف به ، وهي ستة أحرف : الألف والواو والدال والذال والراء والزاي، يضفى عليها صفات القداسة حيث يعتبرها(مفاتيح الغيب) ، فلا يعرف حقيقتها إلا الله ([4]) .

كذلك يضع حروفاً أخرى في مكانة عليا مثل: الألف والباء والميم والواو والنون والياء وغيرها ؛ مما يثير عدة تساؤلات عن حقيقة تصوره لهذه الحروف، وما الذي جعله يستنبط علو مكانتها دون باقي الحروف؟

ألف كذلك ابن عربي كتاب (الألف) وسماه أيضاً كتاب (الأحدية) وذلك لأنه رأي أن الألف يسري في مخارج الحروف كلها سريان الواحد في مراتب الأعداد ، ويصف ابن عربي (الألف) بأنه قيوم الحروف ، وله التنزيه بالقبلية ، وله الاتصال بالبعدية ، (يقصد في طريقة كتابته) فكل شيء يتعلق به ولا يتعلق هو بشيء، فشبهة بالواحد لأن وجود الأعيان يتعلق به ([5]).

وقد بالغ ابن عربي في رؤيته الرمزية للحروف ، فأضفى عليها على سبيل المجاز بعض الصفات الكونية والإلهية ، فعلى سبيل المثال تصوره لحرف (الباء) ، والذي يأتي في المرتبة الثانية من الوجود ، وهو يقصد هنا وجود الحروف ، فهو يشغل المرتبة الثانية سواء في الحروف الرقمية أم المفردة ؛ لذا يجعل ابن عربي ل (الباء) رتبه العقل الأول([6]) . فيعلى من شرفه وجلالته على غيره من الحروف ، وفي هذا يقول : " وهو حرف شريف ؛ فإنه العدل والحق الذي قامت به السموات والأرض وما بينهما ، وإنه من شرفه وتمكنه من طريق مرتبته أن افتتح الحق تعالى به كتابه العزيز (بسم الله) فبدأ

([1]) محيى الدين بن عربي : توجهات الحروف ، تحقيق : عبدالحميد بن السيد بن أحمد الطائي الحاتمى ، ط١٠، مكتبة القاهرة ، ٢٠٠٤م . ص١٠.

([2]) المصدر نفسه ، ص١٥.

([3]) المصدر نفسه ، ص١٤.

([4]) ابن عربي ، الفتوحات المكية ، السفر الأول ، ص٣٥٩.

([5]) ابن عربي ، رسائل ابن عربي ، ج١، ٥٠١-٥٠٢.

([6]) انظر : ابن عربي : الميم والواو والنون ، ص٦.

بالباء ، وهكذا بدأ بها في كل سورة ، فلما أراد الله أن ينزل سورة التوبة بغير بسملة ابتدأ فيها بالباء دون غيرها من الحروف "([1]) . ولذلك جعل ابن عربي من أسماء الباء: العلم والحق والعدل والعقل([2]) .

ويمكن أن نفهم من هذا النص السابق لابن عربي في ضوء ما نقله عن أبى بكر الشبلى([*]) (ت: ٣٣٤هـ) والذي قال: " أنا النقطة التي تحت الباء "([3]) . أي أنها السبب الذي وجد منه ؛ لذا يقرر ابن عربي أن: " بها ظهرت الأشياء لأنها اسم لهذه الحقيقة المعقولة "([4]) .

٤ – تأويل الحروف المقطعة:

يعبر ابن عربي عن هذه الحروف بأنها : (الحروف المجهولة في القرآن) ، وعلى الرغم من أنه كان هناك تراث سابق – صوفي وكلامي وفلسفي– على ابن عربي في هذه الناحية ، فإن ابن عربي أفاض في دراستها وأضاف إليها آراء جديدة متعمقة ومتفردة وفق منهجه .

ويثير تأويل هذه الحروف تساؤلات كثيرة لدى ابن عربي : إذ لم كانت هذه (السور) أصلاً بالسين وليست بالصاد؟ ولم جهل معنى هذه الحروف علماء الظاهر وأهل الباطن؟

وعن التساؤل الأول يذهب ابن عربي إلى أن : " مبادئ السور المجهولة ، لا يعرف حقيقتها إلا أهل الصور المعقولة "([5]). ثم يشير إلى أن الله جعل لهذا ظاهراً وباطناً، فالظاهر (ظاهر السين) هو التعبد الشرعي ، وباطنها بـ (الصاد) هو مقام الرحمة ، الذي هو العلم بحقائقها وهو علم التوحيد([6]) .

وعن أسرار هذه السور يشير ابن عربي إلى أن الله جعلها تسعاً وعشرين سورة ، ثمان وعشرون منها على عدد منازل القمر، وجعل التاسع والعشرون هو في قوله تعالى:

([1]) ابن عربي : كتاب الباء ، ضمن رسائل ابن عربي ، ج١/٤٥٨.

([2]) المصدر نفسه ، ج١/٤٦٢.

([*]) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي ، خراساني الأصل ، بغدادي المنشأ والمولد ، كان مالكي المذهب. صحب الجنيد وغيره من مشايخ عصره ، قال عنه القشيري إنه كان شيخ وقته حالاً وظرفاً وعلماً. راجع : القشيري : الرسالة القشيرية ، ص٣٢. والسلمي: طبقات الصوفية ، ص٣٣٨–٣٤٨.

([3]) ابن عربي: كتاب الباء ، ضمن رسائل ابن عربي ، ج١/٤٦٢.

([4]) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

([5]) ابن عربي : الفتوحات المكية ، السفر الأول ، ص٢٦٦.

([6]) المصدر نفسه ، ص٢٦٦–٢٦٧.

(ألم – الله) (آل عمران: ١-٢) ؛ لذا يشبه ابن عربي هذه السورة بالقطب الذي هو قوام الفلك ، وهو علة وجوده([١]) .

ومن أسرار الحروف المجهولة أن الله سبحانه جعل أول هذه الحروف الألف في الخط ، والهمزة في اللفظ ، وآخرها النون ؛ لأن الألف (رمز) لوجود الذات على كمالها ؛ لأنها غير مفتقره إلى حركة . أما النون فهي (رمز) لوجود الشطر من العالم وهو عالم التركيب . فقد تخيل ابن عربي الفلك عبارة عن دائرة نصفه الظاهر لنا هو النون الحسية والتي ترمز لعالم التركيب ، والنصف الآخر هو النون المعقولة ، وهي في عالم الروح ، ولكن أخفيت هذه النون الروحانية التي بها كمال الوجو ، وجعلت نقطة النون المحسوسة دالة عليها ؛ لذا فالألف في رأيه كاملة والنون ناقصة([٢]).

وقد أفاض ابن عربي كثيرا في تفسير أسرار ألم ، خاصة أشير إلى بعضها بإيجاز – كى لا يطيل بنا المقام – فمنها أن الألف إشارة إلى التوحيد ، والميم للملك الذي لا يهلك ، واللام واسطة ورابطة بينهما([٣]). ولا يختلف ابن عربي هنا كثيرا عمن سبقه من حيث إشارته أو رمزه لكل حرف بكلمة قد تحملتها.

كما يشير في موضع آخر إلى أن عدد حروف (ألم) ثلاثة وإن هذا العدد رمز لعوالمها الثلاثة ؛ فالهمزة وهي من العالم الأعلى ، واللام وهي من العالم الأوسط ، والميم وهي من العالم الأسفل ؛ وعلى هذا فقد جمعت (ألم) البرزخ والدارين والحقيقتين([٤]) .

وإلى نفس المعنى ذهب ابن عربي في تفسيره ، ولكنه أشار إلى أن (الألف) إشارة إلى الله الذي هو أول الوجود ، و(اللام) إلى العقل الفعال المسمى جبريل ، وهو أوسط الوجود الذي يستفيض من المبدأ ويفيض إلى المنتهى ، و(الميم) محمد ([*]) الذي هو آخر الوجود تتم به دائرته وتتصل بأولها([٥]) .

([١]) المصدر نفسه ، ص٢٦٧.

([٢]) راجع : المصدر نفسه ، ص٢٧٠.

([٣]) المصدر نفسه ، ص٢٧٤.

([٤]) المصدر نفسه ، ص٢٩٣ .

([*]) ويرتبط هذا التفسير بفكرة ابن عربي عن الحقيقة المحمدية التي يعتبرها ابن عربي صورة كاملة للإنسان الكامل الذي يجمع في نفسه جميع حقائق الوجود ، والكلمة المحمدية فكرة ميتافيزيقية ، وهي شيء مختلف عن شخصية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والصلة التي تربطهما الحقيقة المحمدية. يرجع إلى : ابن عربي : فصوص الحكم ، تعليق: د. أبو العلاعفيفي: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت، ص٣٢٠-٣٢١.

([٥]) ابن عربي : تفسير ابن عربي ، بدون بيانات ، ج١/١٠٢٩.

وحاصل رأى ابن عربي في هذه الحروف أنها رموزا واختصارات لكلمات دعاء قسم ويبدو ذلك في تأويله لـــ(كهيعص) والتي هي دعاء زكريا لله سبحانه وتعالى بلسان حاله، "فعلى هذا يكون (ك) إشارة إلى الكافي الذي افتضاه حال ضعفه وشيخوخته وعجزه. و(ه) إشارة إلى الهادي الذي افتضاه عنايته به وإرادة مطلوبة له. و(ى) إشارة إلى الواقي الذي افتضاه حال خوفه من الموالي. و(ع) إشارة إلى العالم الذي افتضاه لظهوره لعدم الأسباب. و(ص) إشارة إلى الصادق الذي افتضاه الوعد"([1]). وهذا التأويل السابق الذي ذكره ابن عربي هو مقتبس من نص رواية لابن عباس حسب إشارته إلى ذلك .

ولكن هذا التفسير ليس مذكوراً لدى ابن عباس في تفسيره بهذه الصورة التي أوردها ابن عربي ، فابن عباس يشير إلى أن (كهيعص) هي ثناء أثنى به الله على نفسه ، ويكون معناها وفق حروفها : كاف هاد لخلقه يد الله على خلقه عالم بأمرهم صادق بوعده ([2]).

وأما إشارة ابن عربي إلى أن هذه الكلمات تشير إلى قسم فمن ذلك تأويله لـــ(ص) حيث يشير إلى أنه تعالى: "اقسم بالصورة المحمدية والكمال التام المذكور بالشرف والشهرة بانه أتم الكمالات وهو العقل القرآني الجامع لجميع الحكم والحقائق من الاستعداد التام المناسب لتلك الصورة الشريفة"([3]).

اتضحت ميتافيزيقا الحروف عند ابن عربي ، حيث تناولها وفقاً لمنهجه الرمزي والكشفي ، وخضعت لتلأويلاته الملغزة ولأسراره المذهبية في كثير من الأحيان . وبالرغم من تصنيف ابن عربي أيضاً في علم خواص الحروف والذي عاب على أصحابه الخوض فيه ، فإنه غلب عليه البحث المجرد الذي يتناسب مع طبيعة اتجاهات ابن عربي ، ولكن يمكن القول إن ابن عربي قد أضاف جديداً لهذه الميتافيزيقا .

ثانيا : الحروف من الميتافيزيقيا إلى التطبيق :

أبرز من يمثل هذا الاتجاه أبو العباس البوني ([*]) (ت: ٦٢٢ه) ، والبوني محســـوب على الصوفية ، ومصنف من ضمن رجالهم ، ومشهود له بالفضل بينهم ، على الرغم من

([1]) المصدر نفسه ، ج٢/ ٣ .

([2]) انظر ابن عباس : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت. ص ٢٥٣.

([3]) انظر ابن عربي : تفسير ابن عربي ، ج٢/ ١٦٧.

([*]) أبو العباس أحمد بن على بن يوسف البوني ، ينسب إلى بونة بالمغرب ، ومات بالقاهرة، قال عنه النبهاني أنه من كبار المشايخ ذوى الأنوار والأسرار، وأخذ عنه أبو العباس المرسي الصوفي المعروف ، ومن كراماته أنه كان مجاب الدعوة . من مؤلفاته: السلك الزاهر – اللمعة النورانية – شرح اسم الله الأعظم. انظر: يوسف بن إسماعيل النبهاني : جامع كرامات الأولياء ، ط١، مركز أهل سنة بركات رضا ، الهند ، ٢٠٠١م . ج١/٥٠٨.

ود. عبدالمنعم الحفني: الموسوعة الصوفية ، ط١، دار الرشاد ، القاهرة ، ١٩٩٢م . ص٧١.

أنه ليس له مذهب صوفي محدد ، ومن خلال النظر إلى مؤلفاته يمكن تصنيفه على أنه عالم روحاني ؛ حيث تدور مصنفاته كلها حول علم خواص الحروف وتطبيقاته ، سواء كانت الحروف الهجائية ، أو أسماء الله الحسنى والاسم الأعظم ، أو حروف القرآن . فهو لا يكتفي بالخوض في البحث عن أسرار وخواص هذه الحروف والأسماء ، بل عنى بالتطبيق العملي ، وكيفية الإفادة منها في الأمور الدينية والدنيوية .

ويمكن القول إن هذه المرحلة تميزت بالارتباط الوثيق بين أسرار الحروف وعلم الأعداد ، ويفسر ابن خلدون ذلك بقوله " وامتزج التصرف من السر الحرفي والسر العددي لأجل التناسب الذي بينهما " (١) ، وفي ذلك إشارة إلى منهج البوني الذي هو الكشف والإلهام : " فأما سر التناسب الذي بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين الحروف والأعداد فأمر عسر على الفهم ، إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وإنما مستندهم فيه الذوق والكشف " (٢) قال البوني : " لا تظن أن سر الحروف مما يتوصل إليه بالقياس العقلي ، وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهي " (٣) .

وقد ميز ابن خلدون بين التصرف في الحروف ، وتصرف أصحاب الطلسمات ، نفهم حيث يقول : " صاحب الطلسم أوثق من أصحاب الحروف لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية . أما أصحاب أسرار الأسماء ليس لهم قانون برهاني يعول عليه " (٤) .

ويمكن القول إن البوني يجمع في مؤلفاته بين البحث الميتافيزيقي للحروف ، والجانب التطبيقي أو العملي . ولعل أكثر الأمور الميتافيزيقية تعقيداً وإبهاماً هي تصريحه الدائم في مؤلفه : (الكشف في علم الحرف) بتلقيه هذا العلم عن آصف بن برخيا (*) والذي يصفه بأنه : " سيدنا ومولانا ومرشدنا" (٥) .

ومسألة اتصال البوني بآصف بن برخيا مثار للجدل ، ولا تثبت صحتها أمام العقل أو المنطق ؛ فبالإضافة إلى غموض هذا الأمر اللا معقول والذي لا ينطبق عليه حتى منهجه في الكشف ، فإن التبرير الوحيد لهذه المسألة هو أن البوني أراد أن يلتمس تأييداً

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٦٦٥.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٦٦ .

(٣) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

(٤) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

(*) آصف بن برخيا هو أحد علماء بني إسرائيل ، وهو كاتب الملك سليمان ومن المقربين إليه ، قيل إنه كان يملك العلم الأكبر ، ويعلم الاسم الأعظم ، ويجمع العلماء على أنه من أحضر عرش ملكة سبأ إلى الملك سليمان فى طرفة عين . انظر : الشوكاني : فتح القدير ، ج٤ / ١٤٠.

(٥) أحمد بن علي البوني : الكشف في علم الحرف ، مؤسسة النور للمطبوعات ، د.ت. ص٥ .

علي صحة آرائه لدي العامة ، وأن يربط علمه بمن عُرف عنه بأنه كان عنده علم الكتاب ، و يعلم السر الأعظم.

كذلك فإنه قد وضع عدة جداول وأوفاق باستخدام الحروف والأرقام تمكن المرء من الاتصال بالأرواح العليا والسفلى ، ورؤية من يشاء من الأشخاص، وادعاؤه الاتصال بآصف ابن برخيا هي محاولة منه للتأكيد على صحة ما ذهب إليه ؛ ولكن الحقيقة أن ذلك الأمر يثير مزيداً من الشكوك حول ما ذهب إليه البوني ، ويؤكد تكذيب مثل هذه الادعاءات برمتها وينقض طريقته .

أعود إلى بعض الإشكاليات الميتافيزيقية للحروف التي طرحها البوني في مؤلفاته ومنها : ما طبيعة العلم الذي أعطاه الله لآدم ؟ وذلك كما جاء في قوله تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة : ٣١] (**). يشير البوني إلى اختلاف العلماء حول طبيعة هذا العلم فمنهم من قال هو علم الأسماء على العموم ، ومنهم من قال هو علم الرمل (*) ، وقال بعضهم هو علم النجوم . ويقرر البوني – وحسب قول آصف بن برخيا – أنه : " علم الحروف الذي هو العلم القويم والطريق المستقيم " ([1]) .

أما عن تقييمه لتناول العلماء لهذا العلم ، فهو يرى أن من وقف منهم على ظاهر معانيه فقط فإن حظهم حقير وفهمهم قصير ، وأما من استنار به من العلماء : " أوقفهم الله على المقصود منه ، وأبرز لهم الكون في دائرة كن فيكون ، ونزهت عنهم الأشكال علائق الإمكان ، وأشهدهم الكون بأسره في دائرة سره ؛ فوقفوا على المقصود الأقصى ، والمقام الأسنى " ([2]) . وقد جعل البوني هذا العلم قاصراً على الأنبياء والأولياء ، يقول : " اعلم أن الأولياء رضي الله عنهم تكلموا في علم الحروف والأسماء عن أنوار زاهرة أُفيضت عليهم من منبع الاختصاص عند حصول اليقين في قلوبهم والإخلاص ؛ فاختصوا

(**) وقد اختلف أهل السنة أيضاً حول المراد بهذا العلم ، فقيل هي العبارات وأسماء المسميات ، وقيل أنه أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم.

للتفصيل يرجع إلى : الشوكاني : فتح القدير ، ج١ / ٦٤ .

(*) هو علم الاستدلال على أحوال المسألة بأشكال الرمل ، وهي اثنا عشر شكلاً على عدد البروج ، وأكثر مسائل هذا العلم تخمينية ، ولا تفيد اليقين في مثل هذه الأمور الخفية . انظر : صديق حسن خان : أبجد العلوم ، ج٢/ ٣٠٣ ، ٣٠٤ . وكذلك حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ / ٩١٢ .

([1]) البوني : الكشف في علم الحرف ، ص ٥ .

([2]) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

من علم الأسماء على من سواهم بثلاثة أشياء : أحدها : أنهم فهموا من معاني الأسماء التسعة والتسعين بالتأييد والبرهان والإلهام ما لم يعلمه غيرهم . والثاني : أنهم علموا أسماء باطنة وراء هذه التسعة والتسعين . والثالثة : أنهم اختصوا بالإطلاع على الاسم الأعظم " ([1]) . ويعلي البوني من شأن الأنبياء في هذا العلم ؛ لأنهم علموا معاني التسعة والتسعين بنور الوحي ما لم يعلمه الأولياء بالإلهام ([2]) .

وربط البوني بين الحروف ومعرفة الله تعالى ، فيذهب إلى أن من الحرف تولدت الأسرار وعرفت الأسماء ، وبه عرف الله عز وجل ، وفي ذلك يقول : " فلولا الحرف ما عُرف الباري ، ولأجل تكلم العالم الإنساني بالحرف والصوت ، وجب له أن يتخلق بأخلاق الباري تعالى ، بل إنما هو الخليفة لوجودها فيه وحده دون الحيوانات " ([3]) .

والإشكالية الميتافيزيقية الأخرى التي يثيرها البوني بصدد الحروف هي : أصل وجودها في العدم ، ولا يخفى أنها ترتبط بمشكلة كلامية وهي مشكلة كلام الله . ويشير البوني إلى اختلاف العلماء في وجود الحرف ، فذهب بعضهم إلى أن الله تعالى أوجده من العدم ، قبل وجود السموات والأرض والأفلاك ، وقال بعضهم إنه مربوط بوجود البارئ ؛ لأنه عز وجل يتكلم بالحرف والصوت ([4]) . ويؤكد البوني أن : " الأصح والأوضح الذي انتهت إليه الأقوال ، أن الحرف غير مخلوق ؛ وذلك لأمرين : الأول : حروف القرآن ، والقرآن غير مخلوق . والثاني : أن الله متكلم بالحروف والصوت في القدم " ([5])(*) .

ويربط البوني بين الحروف والأعداد والأفلاك ، ففي ذلك يقول : " اعلم أن الأعداد أسرار ، كما أن الحروف آثار ، وأن العالم العلوي يمد العالم السفلي ، فعالم العرش يمد

([1]) أحمد بن علي البوني : شمس المعارف الصغرى : تحقيق : أبو سلافة الفريدي الفلكي ، مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، الجزائر ،د.ت .ص ٢٨ .

([2]) المصدر نفسه ، الموضع نفسه

([3]) البوني : الكشف في علم الحرف : ص ٢٠ .

([4]) المصدر نفسه :ص ١٨ .

([5]) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(*) ولعل البوني يتبنى هنا موقف الحنابلة الذين ذهبوا إلى أن كلامه حرف وصوت يقومان بذاته وهو قديم ، وأن ما نقرأه ونكتبه عين كلام الله ؛ فيجب أن تكون الكلمات والحروف بعينها هي كلام الله . كما ذهب الحنابلة إلى أنه كما أن كلامه غير مخلوق ؛ لزم أن تكون الكلمات أزلية غير مخلوقة ، ولكنها ليست حروفنا . انظر : عضد الدين الإيجي : المواقف في علم الكلام ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، د. ت ،ص ٢٩٣ . وكذلك عبد الكريم الشهرستاني : نهاية الإقدام في علم الكلام ، تصحيح : ألفرد جيوم ، بدون دار نشر أو تاريخ . ص ٣١٣،٣١٤.

عالم الكرسي ، وعالم الكرسي يمد فلك زحل ... " ([1]) . ثم ينسب الحروف والأعداد إلى الأفلاك ، فلزحل مثلاً حرف الجيم وأعداده ثلاثة وهو أيضاً حروفه ثلاثة ([2]) . لذلك يقرر البوني أنه : " إذا نظر ناظر إلى الحروف وجد لها انطباعاً في النفس ؛ فتصبح موجودة في النفس قبل وجودها في الشكل ، فالألف في الحروف هو الواحد في العدد ، والأعداد قوة روحانية لطيفة " ([3]) .

هذا عن رؤية البوني الميتافيزيقة للحروف ، وهي في النهاية لا يحدها أي منهج ، ولا تختلف كثيراً عن نظرة ابن عربي . وأما عن الجانب التطبيقي لهذه الحروف والأسماء ، فيرى البوني أن : " الأعداد من أسرار الأقوال ، كما أن الحروف من أسرار الأفعال ، وللأعداد في العالم البشري أسرار ومنافع رتبها البارئ جلت قدرته ، كما رتب في الحروف أسرار النفع بالدعاء والرقى ، وغير ذلك مما ظهر تأثيره في العالم الحسي بأنواع الأسماء ، واعلم أن الحروف لا وقت يحصرها ، وإنما هي تفعل بالخاصية بمن شاء ، والأعداد تفعل بالطبيعيات فهي مرتبطة بالاختيارات والعلويات " ([4]) .

لذلك جعل البوني غايته من هذا العلم هي : " العلم بشرف أسماء الله تعالى ، وما أودع في بحرها من أنواع الجواهر الحكميات ، وكيفية التصريف بالأسماء والدعوات وما تابعها من

حروف السور والآيات ليتصل بها بالحضرة الإلهية، ويصل بها إلى رغائب الدنيا"([5]).

وقد وضع البوني عدة شروط للوصول إلى هذه الغاية منها :

- الاعتقاد الصحيح المطابق للكشف الصريح .
- المداومة على الطهارة الحسية والمعنوية .
- رياضة الفكر بالتأمل في هذه الأسماء ومعانيها ؛ بذلك يتحقق اليقين الكامل لمعرفة أسرارها .
- التخلق بجميع الأسماء ؛ ليعطيه كل اسم ما في قوته ويحصل ذلك بالتجلي ، فعلى سبيل المثال : " من أراد التصريف باسم التفت لحضرة ذلك الاسم ، مستعداً لقبول ما يرد عليه من أنوار " ([6]) .

([1]) البوني : شمس المعارف الصغرى ، ص ١٥ .

([2]) المصدر نفسه ، ص ١٦ ..

([3]) المصدر نفسه ، ص ١٦ .

([4]) البوني : شمس المعارف الصغرى ، ص ١٦ .

([5]) أحمد بن علي البوني : شمس المعارف الكبرى ، بدون دار نشر أو تاريخ ، ص١.

([6]) المصدر نفسه : ص ١٢ .

وعن أسرار أسماء الله تعالى يذهب البوني إلى أن لكل اسم من أسماء الله الحسنى دعوة مستجابة ، كما أن لكل اسم خاصية لا يتعداها ، ولا يتعدى الذاكر بها لغيرها ، فهو سر الله في الملك والملكوت ، وطريقة التصريف بهذه الأسماء على سبيل المثال كالقول : اللطيف الخبير ، تؤخذ بدون أداة التعريف فتصبح لطيف خبير ، ثم يعرف كم عددها وفق عدد حروفها ، ثم تضرب في أيام الإسبوع ، وتذكر على طهارة وصلاة وجمع همة وصفاء باطن في موضع خال من الأصوات ؛ فإن في ذلك سرعة استجابة " ([1]) .

وقد تناول البوني ذلك تفصيلاً في مؤلفه (شمس المعارف الكبري) حيث بحث من خلاله خواص كل اسم من أسماء الله الحسني وفائدته في الدعاء ، وكذا حروف فواتح السور ، حيث رتبها في أوفاق معينة بأرقامها المحددة ، يحتفظ بها صاحب الحاجة فتجاب حاجته . ويزخر كتابه المذكور بالأوفاق والعزائم الخاصة بكل اسم ، وبحسب الرغائب المطلوبة (*).

وكذا الأمر بالنسبة للحروف فعلى سبيل المثال : حرف النون ، عدده الرقمي خمسة ، واللفظي مائة وستة ، والعددي سبع مائة وستون ، وله شكل المثلث ، وطريقة العمل به هي أن يكتب في قطعة من الورق بمحلول الفضة وبالمسك والزعفران ، وتكتب حوله نون خمسين مرة ، ويحمل مع صاحب الحاجة ، فيصبح حامله في سرور ونعمة تامة ، ولا يزال كذلك ما دام حياً ([2]) .

ويقسم البوني الحروف إلى عدة أقسام فمنها الحروف السعيدة والنحسة ، ومنها النورانية والمظلمة ، ومنها النارية والترابية والهوائية والمائية ، ولكل قسم من هذه الأقسام طريقة يتصرف بها في هذه الحروف . فعلى سبيل المثال : يذهب البوني إلى أن الأحرف النورانية هي : ط رق س م ع ك ال ن ص ي ح ه ، ويشير البوني إلى أن بها يمكن التصرف في الروحانيات ، وبها يسيطر الإنسان على الأفلاك والأملاك ، وطريقة

([1]) قارن : المصدر نفسه ، ص ١١، ١٢ .

(*) على سبيل المثال التصرف باسم الله المغني لجلب الرزق عن طريق عمل الوفق التالي والاحتفاظ به ، على طريقة الأحجبة اليوم .

م	غ	ن	ي
٥١	٩	٤١	٩٩
٨	٤٨	١٠٢	٢٢٠
١٠١	٤٣	٧	٤٩

انظر : البوني : شمس المعارف الكبرى ، ص ٥٣ .

([2]) البوني : الكشف في علم الحرف ، ص ٥٤ .

التصرف بها تستلزم عدة شروط هي : تجنب أكل لحوم الحيوانات لمدة ثلاثة أيام ، ثم الإقامة في بيت نظيف لا تدخله الشمس من أي جهة ، ويغلق الباب ، ويستمد نوره من مصباح من الزيت ، ويلبس ثوباً نظيفاً ، ثم يعمد إلى ورقة بيضاء ويكتب فيها الأحرف النورانية ، ويرتب عزيمة لكل حرف ([1]) (*) .

ويرى البوني أن هذه الطريقة تطبق أيضاً لرؤية الأشخاص ، ولعل هذا سبب ادعائه التلقي عن آصف ابن برخيا – حيث سبقت الإشارة – .

وقد وضع البوني أيضاً في تطبيقات علم الحروف (الرسالة الجلجلوتية)(*) ، وهي عبارة عن قصيدة باللغة السريانية ، وتعرف أيضاً بدعوة الاسم الأعظم ، وهو الاسم المخزون بين الكاف والنون ([2]) . كما وضع (الأسماء البرهتية) وتعرف أيضاً بـ (العهد القديم) ، ويشير البوني إلى أن هذه الرسالة هي القسم المعول عليه من قديم الزمان ، وكان القدماء يطلقون عليها أيضاً (الكبريت الأحمر) ، وقد تكلم بها سليمان بن داود ثم آصف بن برخيا ، وهي رأس العلوم الروحانية ، وعددها ثمانية وعشرون اسماً على عدد الحروف الهجائية والمنازل القمرية ، وكل اسم له منزلة وفائدة (**) .

ويكفي أن نطلع على فهرس موضوعات مؤلفات البوني لنرى إلى أي مدى ذهب بتطبيقات الحروف لتحقيق أمور لا معقولة وغير متصورة في العقل. ولا أريد أن أستفيض في هذا الجانب كي لا يخرج بنا عن مجال بحثنا ولكنني اكتفيت ببعض الأمثلة على سبيل التوضيح.

يمكن القول إذن أن البحث الميتافيزيقي للحروف ، والذي لم تحكمه قواعد محددة أو مناهج واضحة ، كان من نتيجته هذا الجانب التطبيقي اللا معقول للحروف والذي

([1]) قارن : المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(*) فمثلاً عند كتابة حرف الطاء يقول طهطفيطائيل اعا عال ثطططهتال بتسعال عا عال ... اللهم رب الأفلاك والأملاك ورب النور والنار...وهكذا في بقية الحروف النورانية . انظر : المصدر نفسه ، ص٥٤،٥٥ .

(*) تعني (جل) : عظيم ، و (جليوت) : البديع . انظر : أحمد بن علي البوني : الرسالة الجلجلوتية ، مخطوط بدون بيانات ، ص ٢ ، وشرح هذه الرسالة ورسائل أخري في كتاب للبوني بعنوان : (منبع أصول الحكمة)، وهو مطبوع ومفهرس ، ولكنه بدون بيانات

([2]) البوني : الرسالة الجلجلوتية ، ص ٤ .

(**) على سبيل المثال يذهب البوني في الاسم الأول (برهتيه) أن له من الحروف الألف ، ومعناه بالعربية قدوس وقيل سبوح ، ومن خواصه أن من كتبه خمس وثلاثين مرة في طبق نظيف ثم محاهوسقاه للمرأة المتعسرة في الولادة أو الزواج تيسرت أمورها.كذلك يستعمل لسعة الرزق. انظر: المصدر نفسه، ص٣.

يفوق ظاهرة الشطح عند الصوفية ، وأصبح الأمر لا يعدو كونه من أعمال السحر والتكهن والتنجيم . وبالرغم من أن أصحابه يتصرفون بأسماء الله الحسنى ، فإن الأمر غير مفهوم ولا مؤيد من الشرع ، وخاصة رغبتهم في تسخير قوى الطبيعة لصالح الإنسان ، كوضع البوني عزائم للسير على المياه مثلاً ، الأمر الذي يعني تدخلاً في الإرادة الإلهية ، ومحاولة تغيير السنن الكونية . وإذا كان البوني يدعي أنه يهدف إلى تحقيق غايات تؤدي إلى النفع ودفع الضرر(***)، فإنه مهد السبيل إلى ما هو ضد ذلك ، ولعل هذا هو العلة الشرعية في تحريم هذه العلوم التي يفتتن بها الناس ، كما جاء في قوله تعالى : (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ)]البقرة : ١٠٢[، فلا يخلو الأمر إذن من فتنة تؤدي إلى الكفر .

أقول لهذا السبب كان هناك تحفظاً أو موقفاً إسلامياً تجاه مثل هذه المؤلفات ؛ فمؤلفات البوني على اتساعها لا يزال أكثرها مخطوطاً بدون بيانات ، كما أن المطبوع منها بدون بيانات أيضاً إلا فيما ندر، وعلى مايبدو أن طباعتها تكون على نفقة أحدهم . وقد صادفت أن طبعة إحدى هذه المؤلفات هي الأخيرة ؟ (*)

وللبوني الأثر فيمن جاء بعده ممن يمتهن أعمال التنجيم وما يرتبط به ، حتى إن مؤلفه (شمس المعارف الكبرى) هو مرجعهم الأكبر

وتجدر الإشارة إلى أثر كل هذا التراث الحروفي على تطور دراسة الحروف فيما بعد ، وظهور الحروفية (**) كفرقة استوعبت دراسة الحروف بجانبيها الميتافيزيقي والتطبيقي ثم حولتها إلى عقيدة باطنية.

(***) حيث إن مؤلفه (بحار الأنوار ومعدن الأسرار في العلوم الروحانية) ، مؤسسة النور للمطبوعات ، د.ت، هو عبارة عن أوفاق لفك الأعمال والربط والسحر

(*) وهو كتاب : منبع أصول الحكمة ، الطبعة الأخيرة ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٤١ م .

(**) تنسب هذه الفرقة إلى فضل الله عبد الرحمن الحسيني المعروف بفضل الله الحروفي . ولد في استراباد عام (٧٤٠ هـ) ، في أسرة شيعية صوفية ، استغل تكرار اسم (فضل الله) كثيراً في القرآن فدعا إلى نفسه بصفته مجدد القرن التاسع ، ثم ادعى الخلافة والولاية ، ثم المهدية والألوهية مما أثار العلماء ضده وانتهى الأمر بمقتله ، ومقتل ابنه نور الله والذي خلفه في الولاية ، ومقتل خليفته الشاعر نسيمي البغدادي ، والذي كان أكثر شهرة منه في عام (٨٣٧ هـ). صنف حاجي خليفة عدة مؤلفات للحروفي منها : جاويدان كبير ، وعرفنامه ، ومن الصعب لغير هذه الطائفة الاطلاع على هذه المؤلفات . وتقوم دعوى الحروفية على أن الأصل في العبادة هو اللفظ، وبه يمكن أن يتواصل الإنسان بالله. قارن د. كامل الشيبي : الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .وكذلك :محمد كاظم الطريحي :الصوفيون والحروفيون ، ص٧٤ ، ٧٥ . وأيضاً : د. عبد المنعم الحفني : الموسوعة الصوفية ، ص ١٢٢ ، ١٢٣

وإذا كانت دراسة الحروف تتميز بالخصوصية من عدة نواحي ؛ حيث إنها قاصرة على حروف اللغة العربية ، واسنخراج مضامينها الروحية وكشف أسرارها الباطنية . وبالرغم من ذلك فإن الحروفية فارسية الأصل بحثت أيضاً في الحروف الفارسية وأدمجتها في العربية ، فعدد حروف الأبجدية الفارسية اثنين وثلاثين حرفاً ، بينما تتضمن العربية ثمان وعشرين ، وقد جعل الحروفية أن هذا التواصل بين العربية والفارسية يكون من خلال الحرف التاسع والعشرين وهو (لام ألف) الذي يجمع في حقيقته الحروف الفارسية الأربعة الزائدة على العربية وهي : (پ ،چ ، ژ، گ) ([1]) .

وامتد تأثير هذا التراث حتي وقتنا هذا ؛ لذا أشير في عجالة إلى علم الحروف في الفكر المعاصر :

الحروف في الفكر الإسلامي المعاصر:

لا تزال الحروف المقطعة سراً ملغزاً يراود عقول الباحثين رغم ما قيل من تأويلات لهذه الحروف ، ولكن لم يقنعهم التوقيف عندها ، أو التسليم بها كما جاءت ، ولعل هذه الفكرة القديمة خاطئة فقد اتضح لي خلال البحث أن تقطيع الحروف كان أمراً عادياً في لغة العرب ، يقول الجرجاني عن ألم : " طريق الاختصار على حرف من الكلمة مشهورة في لغة العرب " ([2]) ، ويبدو أن معاني هذه الحروف كانت معروفة وقت الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة فلم تثر أي جدل ، كما أن ابن عباس في تفسيره لم يتجاوزها وأعطى لكل حرف منها معنى . فلم يجد الباحثون الآن أي حرج في الاجتهاد لتقديم تفسير مقنع لهذه الحروف التي مال القدماء إلى إيثار السلامة والسكوت عنها .

ومن هذه المحاولات محاولة تفسير حروف القرآن باللغة الهيروغليفية ، حيث وجد صاحب هذه المحاولة معان واضحة لهذه الحروف في اللغة الهيروغليفية القديمة ، فعلى سبيل المثال :

قوله تعالى : (طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ) [طه :١-٢] ، تتكون (طه) من مقطعين : طا ، ها . وتعني في المصرية القديمة يا هذا أو يا رجل ، انتبه تطلع وانظر ([3]) .

([1]) انظر : د. كامل الشيبي : الفكر الشيعي والنزعات الصوفية ، ص ٢١٣ .

([2]) عبد القاهر الجرجاني : درج الدرر ، تحقيق : طلعت فرحات ، ومحمد أديب شكور ، ط ١، دار الفكر ، الأردن ، ٢٠٠٩م .ج١/ ١٠٤.

([3]) سعد عبد المطلب العدل : الهيروغليفية تفسر القر آن الكريم ، ط١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م . ص ٧٠.

وقوله تعالى : (ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) [ص:١] تعني (ص) في المصرية: يخبر ويقول ويعترف ، كما تعني يسيئ إلى سمعة فلان ، فيصبح المعنى الأقرب للآية: تقولوا عليك وأساءوا لك واتهموك بإتيان ما ليس له سند ، وتقولوا أيضاً على القرآن(١).

وكذلك قوله عز وجل : (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) [ق : ١]، تعني (ق) هنا : يسب ويلعن ، ويسخر ويتهكم ، فالمعنى تطاولوا عليك وسخروا منك ، وحقروا من شأنك وشأن القرآن(٢).

وأما قوله تعالى : (ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) [القلم :١] ، فإن (ن) تعني في المصرية والقبطية والتي هي امتداد المصرية القديمة :هبطوا وانحطوا وغفلوا ؛ وعلى هذا يكون المعنى تباً لهم ، وتباً للقلم الذي يسطرون به ، واللسان الذي يتلفظون به (٣).

محاولة أخرى حاول صاحبها أن يرد اللغة العربية للآرامية أو السريانية ، وأن العربية لهجة آرامية ، وأول من نطق بها إسماعيل والذي كان عبراني وعندما أقام في جزيرة العرب أصبح من العرب المستعربة ؛ وعلى هذا يقرر هذا الباحث أن غالبية كلمات القرآن آرامية ؛ ولذلك فمن اليسير جداً أن نجد معاني الحروف المقطعة بمنتهى الوضوح في السريانية . فعلى سبيل المثال : تعني (ألم) اصمت ، و(ألر) تبصر وتأمل بقوة ، و (طه) يا رجل ، و(كهيعص) يعظ .كذلك يشير إلى أن الاسم الأعظم في السريانية هو (يهوه) وتعني الكائن الدائم أو الله (*) .

وقد تعرضت مثل هذه المحاولات للنقد ، ولكن يظل الأمر مجرد اجتهاد لا يضر ، وخاصة أن ابن حزم (ت : ٤٥٦ هـ) قد أشار إلى ذلك وانتهى إلى أن السريانية أصل العربية والعبرانية معاً (٤) .

هذا عن البحث الميتافيزيقي المعاصر للحروف ، أما تطبيقات هذه الحروف فهي لا تزال تستهوي الباحثين أيضا ، خاصة فيما يتعلق باستخراج أسرار الأعداد من القرآن الكريم ، وما يشير إليه كل عدد من حقائق كونية ومعرفية. وأما عن الشيعة فقد وجدوا

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٦٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥١ .

(*) يسمى هذا الباحث العربي : لؤي الشريف ، وهو يبث أبحاثه اللغوية خلال القنوات الإلكترونية ، والبرامج الفضائية . ويمكن الرجوع إلى محاضرة له بعنوان (الجذور الآرامية للعربية).

(٤) انظر : أبو محمد علي بن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥م .ج١/ ٣٣ – ٣٤ .

أيضاً في هذه الأعداد التي وردت في القرآن تأييداً لمذهبهم وعقائدهم ؛ فقد لاحظ بعضهم أن كلمة الإمامة وردت اثنا عشرة مرة ، وهو نفس عدد أئمتهم . وكلمة الكساء وردت خمس مرات ، وهو عدد أهل الكساء . وكلمة العصمة وردت حوالى ثلاث عشرة مرة ، وهو نفس عدد أئمتم المعصومين ([1]) .

وأما في مجال التنجيم وغيره من أعمال السحر والوفق ، فلا تزال كتب البوني المصدر الأساسي لهؤلاء ، وكذلك لا تزال مؤلفاته وشروحها تتصدر القنوات الإلكترونية.

وبعد فإن دراسة الحروف من أكثر الميادين خصوبة واتساعاً في الثقافة الإسلامية ، قديماً وحديثاً ، من حيث تنوع المجالات ، وتعدد المؤلفات ، وتنوع الأفكار . ولا يزال المجال متسعاً لمزيد من البحث فيه .

([1]) انظر : علي بو صخر : أسرار الحروف والأعداد ، ط١ ، مؤسسة بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) لإحياء تراث أهل البيت ، إصدار رقم ٢٣ ، ٢٠٠٣ م . ص٤٩ – ٥٠ .

نتائج البحث

تناولت الحروف بين اتجاهين : ميتافيزيقي وتطبيقي ، وبين علمين : (التصـــوف) و(التصرف) ، وكلاهما ليسا علماً إسلامياً بالمعنى الدقيق بل هو نتاج عقلية المسلمين .

وما يفصل بين (التصوف) و (التصرف) ليس حرف واحد بـــل طبيعـــة البحـــث والمنهج والغاية ، وهذا في حد ذاته كان يمثل إشكالية ، فالجانب التطبيقي للحروف مثله رجال من الصوفية وصفوا أحياناً بالغلاة ، وهم ليسوا من الصوفية في شـــيئ ، فـــالبوني على سبيل المثال ليس له مذهب صوفي كغيره ، بل نسبته إلى الاشتغال بالعلوم الروحانية أدق .

والأمر الأغرب أنني صادفت أحد الأسماء في كتب التراجم كتب بجواره من كبـــار المتصرفة ثم عدل الناسخ هذه الكلمة الأخيرة لتصبح المتصوفة ، ليست المسألة الفاصـــلة إذن حرفاً ، فالتصوف شيئ والتصرف شيئ آخر ، على أن ذلك لا يعنـــي أن المتصـــرفة أفادوا من الصوفية كثيراً ، وبالتحديد استغلوا الجانب الميتافيزيقي لديهم تمامـــاً لتحقيـــق غايتهم .

وأحاول فيما يلي أن ألخص نتائج البحث الأساسية والتي عرضت تســـاؤلات عنهـــا في مقدمة البحث :

١-اهتم المسلمون بالبحث في الحروف مسايرة منهم لميادين البحث التي طرحـــت هـــذا الموضوع كاليونان مثلاً . ومن جهة أخري فإن الطبيعة التجريدية والرمزية للحـــروف جعلتهـــا بمثابة الأسرار ، وبما تطرحه من تساؤلات فلسفية تغذي الجانب الروحي والباطني لدى الصوفية الذين يلائمهم هذا النوع من البحث فانطلقوا فيه .

٢-ألف المسلمون في هذا العلم على غرار ما وجدوا ، ولكنهم أضافوا وأبدعوا ؛ لأن للغة العربية المضمون الأعمق .

٣-لا يمكن القول إن المسلمين استمدوا من مصادر خارجية ، فهـــو علـــم مثلـــه مثـــل التصوف نتاج إسلامي وعربي خالص في مادته وموضوعه ومنهجه .

٤- عدم وجود مأثورات قاطعة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حول فواتح السور ، حرك الشعور بتعميق البحث الروحي فيها . فالأسرار العرفانية والروحية دائماً ما تفسح المجال للانطلاق والاختلاف .

٥-طبيعة الحروف والأعداد المجردة تلائم كثير من العلوم الميتافيزيقية التي انبثقت عنها ، وتعتبر الحروف والأعداد مادتها الأساسية .

٦-كذلك طبيعة الحروف وماهيتها ملائمة للوجدان الصوفي ، وللثراء الروحـــي لـــديهم ؛ فتنوعت تناولاتهم لها وفق ذوق كل منهم ، حتى اعتبرها ابن عربي أمة متكاملة .

٧-إن مناهج الصوفية مثل الكشف والرمزية هي أكثر المناهج تحرراً في الفكر الإسلامي ، فهي لا تتقيد بحدود الزمان ولا المكان بل تتخطى كل هذا ، حيث يحلق الصوفي في سماء اللامعقول ويعود ليحتمي بها ويبرر بها آرائه ؛ لذا تنوع وجهات نظر الصوفية حول الحروف والأعداد رغم وحدتها أمر طبيعي في التصوف .

٨-أعتبر أن الجانب التطبيقي للحروف قد احتال على التصوف ؛ ليجعل منه الوجهة المقبولة له ، فهو يهدف إلى تحقيق مآرب لا عقلية خارقة للطبيعة ، وتتحدى سنن الكون ، وما كان ذلك هدف الصوفية الخلص ، كما أنه اتخذ من الكشف أيضاً مبرراً للامعقول .

٩-حُل هذا الإشكال اليوم في الفكر المعاصر ، بحيث أصبح معروفاً أن الصوفية ليسوا هم أصحاب الأعمال الروحانية والتنجيم وغيره ، وأن هؤلاء هم الروحانيون وهم في اتجاه آخر

١٠- ماهية الحروف لايحدها منهج ، ولا يحصرها علم ، فمجال التأويل فيها مفتوح ومسموح في كل زمان ، وليس أدل على ذلك من تأويلات اليوم وشغف بعض الباحثين باستخراج الأسرار التي يقتنعون تماماً بوجودها .

قائمة بمصادر ومراجع البحث

١- ابن العماد (شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق : عبدالقادر الأرناؤوط ، ط١، دار ابن كثير ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٨م .

٢ - ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحاق) : الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

٣- ابن الوزير (أبو عبد الله محمد بن المرتضى) : إيثار الحق على الخلــق ، ط١ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م .

٣- ابن حزم (أبو محمد علي) : الإحكام في أصول الأحكام ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥م .

٤- ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة ، دار الفكر، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠١م .

٥- ابن خلكان (أبوالعباس شمس الدين) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٨م .

٦- ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله) : تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات ، ط١، مطبعة هندية ، مصر، ١٩٠٨م.

٧- ----------: أسباب حدوث الحروف ، تحقيق : محمد حسان الطيان ، ويحيي علم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، د. ت.

٨- ابن صاعد الأندلسي (أبو القاسم صاعد بن أحمد) : طبقات الأمم ، نشرة الأب لــويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩١٢م .

٩- ابن عباس (عبد الله) : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .

١٠- ابن عربي (محيي الدين) : فصوص الحكم ، تعليق: د. أبو العلاعفيفي : دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت .

١١- - ----------: الفتوحات المكية ، تحقيق: د. عثمان يحيى ، ط ٢، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٥م .

١٢- ----------: الميم والواو والنون ، بدون دار نشر أو تاريخ نشر .

١٣- ----------: توجهات الحروف ، تحقيق: عبدالحميد بن السيد بن أحمد الطائي الحاتمى، ط١٠، مكتبة القاهرة ، ٢٠٠٤م .

١٤- ----------: مجموعة رسائل ابــن عربــي ، ط١، دار المحجــة البيضاء ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٠م .

١٥- ابن منظور : لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ، بيــروت ، لبنــان ، ١٩٩٩م.

١٦- أبوريدة (محمد عبدالهادي) : رسائل الكندى الفلسفية ، دار الفكر العربي ، القاهرة

، ١٩٥٠م.

١٧- إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفا ، مكتب الإعلام الإسلامي ، قم ، ايـــران ، ١٤٠٥ه .

١٨- الإدريسي (د. محمد العدلوني) : نصوص من التراث الصوفي الغرب إسلامي ، ط ١، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الجزائر ، ٢٠٠٨م .

١٩- الإيجي (عضد الدين) : المواقف في علم الكلام ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، د. ت .

٢٠- البغدادي (على بن أنجب الساعدى) : أخبار الحلاج ، تحقيق : موفق فوزى الجبر، ط٢ ، دار الطليعة ، سوريا ، ١٩٩٧ م .

٢١- البوني (أبو العباس أحمد بن علي بن يوسف) : شمس المعارف الصغرى : تحقيق : أبو سلافة الفريدي الفلكي ، مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، الجزائر ، د.ت .

٢٢- ----------: شمس المعارف الكبرى ، بدون دار نشر أو تاريخ .

٢٣- ----------: الكشف في علم الحرف ، مؤسسة النور للمطبوعات ، د.ت .

٢٤- ----------: منبع أصول الحكمة ، ط الأخيرة ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٤١ م .

٢٥- ----------: بحار الأنوار ومعدن الأسرار في العلوم الروحانية ، مؤسسة النور للمطبوعات ، د.ت . دار الطليعة ، سوريا ، ١٩٩٧م .

٢٦- الترمذي (أبو عبد الله محمد بن علي) : تحصيل نظائر القرآن ، تحقيق : حسني نصر زيدان ، ط ١، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٢٧- ----------: علم الأولياء ، تحقيق : د. سامي نصر لطف ، مكتبة الحرية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٨١م .

٢٨- التسترى (سهل بن عبد الله بن يونس) : تفسير القرآن العظيم ، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد ، وسعد حسن محمد على ، دار الحرم للتراث ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

٢٩- التهانوي (محمد علي) : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تحقيـــق : د. علـــي دحروج ط١، مكتبة لبنان ناشرون ، ١٩٩٦م.

٣٠- الجرجاني (عبد القاهر) : درج الدرر ، تحقيق : طلعت فرحات ، ومحمـــد أديـــب شكور ، ط ١، دار الفكر ، الأردن ، ٢٠٠٩م .

٣١- الحفني (د. عبدالمنعم) : الموسوعة الصـــوفية ، ط١، دار الرشـــاد ، القـــاهرة ، ١٩٩٢م.

٣٢- السلمي (أبو عبدالرحمن) : طبقات الصوفية ، تحقيق : نور الدين شريبة ، ط٣ ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٩٧م .

٣٣- الشهرستاني (عبد الكريم) : نهاية الإقدام في علم الكلام ، تصحيح : ألفرد جيوم ، بدون دار نشر أو تاريخ .

٣٤- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد) : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، دار الفكر ، د.ت.

٣٥- الشيبى (د. كامل مصطفى) : الفكر الشيعي والنزعات الصوفية ، ط١، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٦م .

٣٦- الطريحي (محمد كاظم) : الصوفيون والحروفيون ، ط١ ، دار المرتضى ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٤ م .

٣٧- العجم (د. رفيق) : موسوعة مصطلحات الصوفية ، ط١، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩م .

٣٨- العدل (سعد عبد المطلب) : الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم ، ط١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م .

٣٩- الغزالي (ابوحامد محمد بن محمد) : إحياء علوم الدين ، مكتبة مصر ، ١٩٩٨م.

٤٠- الفارابي (محمد بن طرخان أبو نصر) : كتاب الحروف ، تحقيق : محسن مهدى ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، د.ت .

٤١-القرني (عبد الحميد فرغلى على) : محيى الدين بن عربي ، سلسلة أعلام العرب ، الهيئة المصرية للكتاب ، رقم ١١٩ .

٤٢-القشيرى (أبو القاسم) : الرسالة القشيرية ، ط٢ ، دار السلام ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

٤٣- القفطى (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف) : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط١، مطبعة السعادة ، مصر، ١٣٢٦ه.

٤٤- القنوجي (صديق حسن خان) : أبجد العلوم ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨١ م .

٤٥- النبهاني (يوسف بن إسماعيل) : جامع كرامات الأولياء ، ط١، مركز أهل سنة بركات رضا ، الهند ، ٢٠٠١م .

٤٦- الهجويرى (أبو الحسن على بن عثمان) : كشف المحجوب دراسة وترجمة : إسعاد قنديل ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٧م .

٤٧- الهروي (محمد بن يوسف الطبيب) : بحر الجواهر في تحقيق المصطلحات الطبية، ط١ ، طهران ، إيران ، ١٣٨٨هـ.

٤٨- إيرناندیث (كروث) : تاريخ الفكر في العالم الإسلامي ، ترجمة : عبدالعال صالح ، ط٢ ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٢ م .

٤٩- بالنثيا (آنخل جنثالث) : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة : حسين مؤنس ، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١١م .

٥٠- بو صخر (علي) : أسرار الحروف والأعداد ، ط١ ، مؤسسة بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) لإحياء تراث أهل البيت ، إصدار رقم ٢٣ ، ٢٠٠٣ م .

٥١- جعفر (د. محمد كمال إبراهيم) : من التراث الصوفي لسهل بن عبد الله التستري ، ط١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

٥٢- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

٥٣- زيعور (د.علي) : التفسير الصوفي للقرآن عند الصادق ، ط١ ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩م .

٥٤- سليمان (د. مصطفى محمود) : تاريخ العلوم والتكنولوجيا ،ط٣ ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٧ م.

٥٥- طرابيشي (جورج) : معجم الفلاسفة ، ط٣ ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٦ م .

٥٦- عباس (قاسم محمد) : الحلاج الأعمال الكاملة ، ط١، بدون دار نشر، بيروت ، ٢٠٠٢م.

٥٧- عفيفي (د. زينب) : فلسفة اللغة عند الفارابي ، دار قباء للنشر والتوزيع ، القاهرة ، د.ت.